

روبرت لويس ستيفنسون

القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد

ترجمة محمد عناني


mohamed khatab

القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد

تأليف
روبرت لويس ستيفنسون

ترجمة
محمد عناني



القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد

روبرت لويس ستيفنسون

Strange Case of Dr Jekyll and Mr Hyde

Robert Louis Stevenson

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣١٤١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٨٨٦.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور محمد عناني.

المحتويات

تقديم

على نحوِ ما أذكر في كتابي «فن الترجمة» — وما فَتِئتُ أُردِّد ذلك في كُتُبي التالية عن الترجمة — يُعد المُترجِم مُؤلِّفًا من الناحية اللغوية، ومن ثَمَّ من الناحية الفكرية؛ فالترجمة في جوهرها إعادةُ صَوغٍ لفكرِ مُؤلِّفٍ مُعين بألفاظِ لغةٍ أخرى، وهو ما يعني أن المترجم يَستوعب هذا الفكرَ حتى يُصبح جزءًا من جهاز تفكيره، وذلك في صورٍ تتفاوَت من مُترجِمٍ إلى آخر، فإذا أعاد صياغة هذا الفكر بلُغةٍ أخرى، وجدْنا أنه يَتوسَّل بما سمَّيتُه جهازَ تفكيره، فيُصبح مُرتبطًا بهذا الجهاز. وليس الجهاز لغويًّا فقط، بل هو فكريٌّ ولغوي؛ فما اللغة إلَّا التجسيد للفكر، وهو تجسيدٌ محكوم بمفهوم المُترجِم للنص المَصدَر، ومن الطبيعي أن يتفاوت المفهوم وفقًا لخبرة المُترجِم فكريًّا ولغويًّا. وهكذا فحين يبدأ المُترجِم كتابةَ نصِّه المُترجَم، فإنه يُصبح ثمرةً لما كتبه المؤلِّف الأصلي إلى جانبِ مفهوم المُترجِم الذي يَكتسي لغتَه الخاصة؛ ومن ثَم يَتلوَّن إلى حدٍّ ما بفكره الخاص، بحيث يُصبح النص الجديد مزيجًا من النصِّ المَصدَر والكساءِ الفكري واللغوي للمُترجِم، بمعنى أن النَّص المُترجَم يُفصِح عن عملِ كاتبَين؛ الكاتب الأول (أي صاحب النَّص المَصدَر)، والكاتب الثاني (أي المُترجِم).

وإذا كان المُترجِم يكتسِب أبعادَ المُؤلِّف بوضوحٍ في ترجمة النصوص الأدبية، فهو يكتسب بعضَ تلك الأبعاد حين يُترجِم النصوصَ العلمية، مهما اجتهد في ابتعاده عن فكره الخاص ولُغته الخاصة. وتتفاوت تلك الأبعاد بتفاوُت حظِّ المُترجِم من لغة العصر وفكره؛ فلكل عصرٍ لغتُه الشائعة، ولكل مجالٍ علمي لُغتُه الخاصة؛ ولذلك تتفاوت أيضًا أساليبُ المُترجِم ما بين عصرٍ وعصر، مِثلما تتفاوَت بين ترجمة النصوص الأدبية والعلمية.

وليس أدل على ذلك من مقارنةِ أسلوب الكاتب حين يُؤلِّف نصًّا أصليًّا، بأسلوبه حين يُترجِم نصًّا لمُؤلِّفٍ أجنبي؛ فالأسلوبان يتلاقَيان على الورق مِثلما يتلاقيان في الفكر.

فلكُلِّ مُؤلِّف، سواءٌ كان مُترجِمًا أو أديبًا، طرائقُ أسلوبيةٌ يعرفها القارئ حَدْسًا، ويعرفها الدارس بالفحص والتمحيص؛ ولذلك تَقترن بعض النصوص الأدبية بأسماء مُترجِميها مِثلما تقترن بأسماء الأدباء الذين كتبوها، ولقد تَوسَّعتُ في عرْض هذا القول في كُتبي عن الترجمة والمُقدِّمات التي كتبتُها لترجماتي الأدبية. وهكذا فقد يجِد الكاتب أنه يقول قولًا مُستمَدًّا من ترجمةٍ مُعيَّنة، وهو يَتصوَّر أنه قولٌ أصيل ابتدعَه كاتبُ النص المَصدَر. فإذا شاع هذا القول في النصوص المكتوبة أصبح ينتمي إلى اللغة الهدف (أيْ لغة الترجمة) مِثلما ينتمي إلى لغة الكاتب التي يُبدِعها ويراها قائمةً في جهاز تفكيره. وكثيرًا ما تَتسرَّب بعض هذه الأقوال إلى اللغة الدارجة فتحلُّ محلَّ تعابيرَ فُصحى قديمة، مثل تعبير «على جثتي over my dead body» الذي دخل إلى العامية المصرية، بحيث حلَّ حلولًا كاملًا محلَّ التعبير الكلاسيكي «الموت دونه» (الوارد في شِعر أبي فراس الحمداني)؛ وذلك لأن السامع يجد فيه معنًى مختلفًا لا ينقله التعبير الكلاسيكي الأصلي، وقد يُعدِّل هذا التعبير بقوله «ولو متُّ دونه»، لكنه يجد أن العبارة الأجنبية أفصح وأصلح! وقد ينقل المُترجِم تعبيرًا أجنبيًّا ويُشِيعه، وبعد زمنٍ يتغير معناه، مثل «لَمَن تُدَقُّ الأجراس» for whom the bell tolls؛ فالأصل معناه أن الهلاك قريبٌ من سامعه (It tolls for thee)، حسبما ورد في شِعر الشاعر «جون دَنْ»، ولكننا نجد التعبيرَ الآن في الصحف بمعنى «آنَ أوانُ الجد» (المستعار من خُطبة الحجَّاج حين وَلِي العراق):

آنَ أوانُ الجدِّ فَاشْتَدِّي زِيَمْ   قد لَفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَمْ
ليسَ براعي إبلٍ ولا غَنَمْ   ولا بجزَّارٍ على ظهر وَضَمْ

فانظر كيف أدَّت ترجمةُ الصورة الشعرية إلى تعبيرٍ عربي يختلف معناه، ويَحلُّ محلَّ التعبير القديم (زِيَم اسم الفرس، وحُطَم أي شديد البأس، ووَضَم هي «القُرْمة» الخشبية التي يَقطع الجزَّار عليها اللَّحم)، وأعتقد أن من يُقارِن ترجماتي بما كتبتُه من شِعر أو مسرح أو رواية سوف يكتشف أن العلاقة بين الترجمة والتأليف أوضح من أن تحتاج إلى الإسهاب.

محمد عناني
القاهرة، ٢٠٢١م

مقدمة الطبعة الإنجليزية

بقلم روبرت ميجهال[1]

تُعتبر «القضية الغربية للدكتور جيكل ومستر هايد» التي كتبها روبرت لويس ستيفنسون (١٨٨٦م) من أشهر قصص الرعب على مَر الزمن، وهي تشترك مع رواية «فرانكنشتاين» التي كتبتها ماري شيلي (١٨١٨م)، و«دراكولا» التي كتبها برام ستوكر (١٨٩٧م) في أنها — أو على الأقل في أن إحدى صور فكرتها الرئيسية — تكمن في الوعي الجمعي للإنسان. وقد جُعلت موضوعًا لأفلامٍ كثيرة، وظهرت في ما لا يُحصى من الرسوم، والصور الكاريكاتورية، والقصص التي تحاكيها محاكاةً ساخرة، كما دخل تعبير «شخصية من جيكل وهايد» إلى لغتنا، بحيث يصف الفرد الذي يعيش حياة مزدوَجة، ظاهرها الخير وباطنها الشر. فإذا اكتشفت الصحف الشعبية أن مَن عُرفَ أمرُه أخيرًا من السفَّاحين ذوي الضحايا المتوالية، أو من القتلة ذوي العقل المختل، أو حتى من صغار المحتالين؛ لا يقضي ساعات نهاره كلها في ممارسة هذه الفِعال، بل تمرُّ به أوقاتٌ لا يختلف فيها سلوكه عن سلوك جيرانه، فالأرجح أن تقول تلك الصحف: إن فلانًا يبدي ميول «جيكل وهايد»؛ باعتبار ذلك وصفًا موجزًا يفيدها في صوغ الأخبار المثيرة، بل ربما كان يمثِّل دعوةً لنا لتفحُّص جيراننا بدقَّةٍ أكبر. ومما يشهد لستيفنسون بقوة طاقته الابتكارية

[1] عمل المؤلف محرِّرًا لسلسلة «كلاسيكيات بنجوين» في عام ١٩٩٧م، ويعمل الآن مستشارًا للسلسلة. وهو متخصص في الأدب القوطي والعلوم الطبية والقانونية في العصر الفيكتوري. وقد كتب هذه المقدمة لطبعة بنجوين عام ٢٠٠٢م.

في الكتابة؛ أن إبداعه لا يزال يتمتع بهذا الوجود المستقل بعد نشر حكايته للمرة الأولى بما يزيد على مائة عام. ومع ذلك، وعلى رغم من إلمام الناس في شتَّى أرجاء العالم كله تقريبًا بالفكرة التي تقوم عليها هذه القصة؛ فالواقع يقول أيضًا: إنَّ مَن يعرف بها من الناس أكثر ممن يعرفها في ذاتها، وإن الكثير ممن يعتقدون أنهم يعرفون موضوعها لم يقرءوا فعلًا الصفحات المائة التي تضمُّ الحكاية. ولسوف يجدُون فيها ما يختلف عمَّا كانوا يتخيلون، أي سيجدون قصةً أشدَّ تعقيدًا، وأكثر إمتاعًا وإقلاقًا من الصورة المتناقَلة والموروثة بشكلها الثقافي الشائع. ومن الأفضل لقُرَّاء قصة «القضية الغريبة» أن يعودوا لهذه المقدمة بعد قراءتها؛ إذ لا بدَّ من الكشف عن بعض تفاصيل الحبكة هنا بغرض مناقشتها. وسوف يجدُ القرَّاء الجُدُد أن القراءة ستكون أشدَّ ثراءً إذا استطاعوا أن ينسوا جميع تصوراتهم السابقة، وأن يضعوا أنفسهم في موقع أوائل قرَّاء ستيفنسون الذين لم يكونوا يعرفون أيَّ شيء عن جيكل وهايد.

روايات الرعب في عيد الميلاد المجيد

كتب روبرت لويس ستيفنسون هذه القصة — وهي أشهر قصصه — في أكتوبر ١٨٨٥م، عندما كان في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان يقيم في مدينة بورنموث مع زوجته فاني، ولويد أوزبورن ابنها من زيجةٍ سابقة. وتكشف خطابات ستيفنسون، إلى جانب بعض ملاحظاته في «فصل عن الأحلام» — الذي نقدِّمه مختصَرًا في هذا الكتاب — عن الضائقة المالية التي كان يمرُّ بها في ذلك الوقت، فعلى الرغم من احترافه الكتابة من سِنِّ الحادية والعشرين؛ فإنه كان لا يزال يعتمد على والده، وهو ما كان يُشعره ببعض الحرج. وقد كُتبت الحكاية للسوق التجارية؛ حتى يستطيع أن يسدد ما يدين به لأمثال «بايلز الجزار»،[٢] وكانت الحكاية فعلًا أول عملٍ ناجح يكتبه، وهو ما أتاح له الاستقلال المالي للمرة الأولى.

وضمانًا للنجاح استغلَّ ستيفنسون خياله الخصب في إبداع «حكاية مخيفة جميلة»، قادرة على الرَّواج في السوق الكبيرة لمثل هذه الكتابات، وكان محرِّر أعمال ستيفنسون في

[٢] ستيفنسون، خطاب إلى: ف. و. هـ مايرز، ١ مارس ١٨٨٦م، في الخطابات الكاملة، المجلد ٥، من تحرير: برادفورد أ. بوث، وإرنست ميهيو (١٩٩٥م)، ص٢١٦. والاسم «بايلز» يرمز لكل دائن، ولم يكن فعلًا اسم الجزار الخاص بستيفنسون.

دار لونجمان للنشر؛ قد طلب إليه أن يكتب قصة «مرعبة تُبَاع بشلن واحد»؛ لنشرها في عيد الميلاد عام ١٨٨٥م، وهو الموسم المرتبط بصورة تقليدية بقصص الخرافات والرعب. وكانت حكاية «أغنية الكريسماس» التي كتبها تشارلز ديكنز، وصوَّر فيها أشباح الموتى واكتسبت شهرةً فائقة؛ إحدى قِصصه الكثيرة التي كتبها في إطار التقاليد المذكورة، وكَتب ستيفنسون نفسه قصة «اختطاف الأجساد» و«أولالَّا» للنشر في الكريسماس عام ١٨٨٤م، و١٨٨٥م. وحينما اتضح للناشر أن سوق الكتب في الكريسماس عام ١٨٨٥م كانت حافلة بالمطبوعات الجديدة، قرر تأجيل نَشْر «القضية الغريبة» إلى شهر يناير التالي، وكانت هذه الحكاية قد حُدِّد لها من البداية أن تكون «حكاية الرعب» — أي حكاية مثيرة تعالج حادثةً خرافية، وتهدف إلى إحداث قشعريرةٍ ممتعة في قرَّائها — ومن المفيد لنا أن ننظر في تقاليد هذا الفن الأدبي، إذ سيساعدنا ذلك في أن نفهم كيف تتفق هذه الحكاية وتختلف أيضًا، بل وتُدخل بعض التجديد على ذلك الشكل الأدبي الذي كُتب لها أن تؤثِّر فيه تأثيرًا هائلًا.

بدأت قصص الرعب في الواقع بالرواية القوطية التي كتبها هوارس والبول بعنوان «قلعة أوترانتو» ونشَرَها عشيَّة الكريسماس عام ١٧٦٤م. وكان قد كتب هذه الحكاية التي تعجُّ بالأشباح، والنُّذُر، واللعنات القائمة على بعض الأُسَر، والأحداث الخرافية الغريبة، باعتبارها — إلى حد ما — فكاهة؛ إذ كان قد قدَّمها باعتبارها مخطوطًا من العصور الوسطى «اكتشفه» أحد علماء الآثار في القرن الثامن عشر، وأراد أن يُتحِف به — باعتباره يتضمن الغرائب والعجائب — القرَّاء «المتنورين» في العصر الحديث. وقد صدَّق الكثيرون خدعة والبول، واستمتع الكثيرون بهذه التجربة الجديدة ألا وهي قراءة مادةٍ متصلةٍ بالأساطير الفولكلورية وقصص الحب والمغامرات والفروسية على صفحات إحدى الروايات. وكانت الرواية شكلًا مَعنيًّا حتى ذلك الوقت بشئون الحياة المعاصرة واليومية، وبكل ما هو محتمَل الوقوع أو واقعي. وتَلَتْ هذه الرواية رواياتٌ أخرى، وببزوغ القرن التاسع عشر كان النقاد يشْكُون من أن الساحة الروائية قد أغرقها طوفان قصصِ الثأر الشيطانية واللعنات المصبوبة على بعض الأُسَر، ومن أن أحداثها تجري في حصونٍ قديمة أو في أدْيِرَة عريقة، في أعماق غابات مدلهِمَّة، وأن أبطالها من النبلاء الإيطاليين أو الإسبان المستكبرين أو من رجال الكنيسة الفاسدين. وكانت معظم القصص القوطية الأولى — حتى أفضل ما خطَّته أقلام آن رادكليف، أو ماثيو لويس، أو تشارلز ماتورين — تدور أحداثها في العصور السحيقة، أو في بُلدان بعيدة (تدين عادةً بالكاثوليكية) أو فيهما

معًا. وكان المفهوم الذي يشترك فيه الكاتب والقارئ أن مثل هذه الفظائع بعيدةٌ كل البعد عمَّن كانوا يستمتعون بمثل هذه القصص (أي أفراد الطبقة المتوسطة من البروتستانت في لندن أو في إدنبرة أو في باث)، وأنها من المُحال أن تقع إلا في عصور أو أماكن (أقل تحضُّرًا).

وستيفنسون نفسه يلتزم بهذه التقاليد[٣] في قصته القصيرة «أولالَّا»، التي نشَرَها قبل «جيكل، وهايد» بعدَّة أسابيع. فهذه القصة تُعتبر نموذجًا صادقًا للحكاية القوطية؛[٤] بسبب معالجتها لموضوع التَّأَسُّل؛ أي ما يرثه الفرد من خصائص لأحد الأجداد الذين بَعُدَ العهد بهم، ولشكل من أشكال مصِّ الدماء،[٥] ووقوع أحداثها في قَصر أرستوقراطي عريق في بقعةٍ نائيةٍ في إسبانيا .. ويجمُل بنا قبل أن ننظر في أسباب الأصالة العميقة لقصة «جيكل وهايد» أن نذكر قصة رعبٍ أخرى، وهي قصة «اختطاف الأجساد» (١٨٨٤م)؛ لأنها تختلف اختلافًا بَيِّنًا عن «جيكل وهايد»، وإن كانت تتفق في بعض جوانبها مع هذه القصة الأشهر التي نُشرت بعد عامين … ففيها نسقٌ واضح لكبْت الإحساس بالذنب، وللحياة المزدوجة التي تجمع بين التمتع بالاحترام في أثناء النهار وارتكاب الآثام في ساعات الليل، كما تتضمن عودة أشباح الجرائم القديمة «للاستيلاء» على مرتكبيها، وكل ذلك في إطار الحكاية الخرافية التقليدية إلى حدٍّ بعيد، وهو ما تطوَّر تطورًا بالِغ الرهافة في القصة التالية التي كتبها ستيفنسون لسُوق قصص الرعب في فترة عيد الميلاد المجيد. والواقع أن «القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد» التي كُتبت بعد ذلك بعامٍ واحد، على وجه الدقة، تتخلص تمامًا من مظاهر القصِّ القوطي التقليدي، خصوصًا وقوع الأحداث «بعيدًا» في جنوب إسبانيا أو منذ عهدٍ بعيد أو قريب، أي في الماضي. فالقضية الغريبة تقع أحداثها في لندن، وفي الوقت الحالي، كما تجعل مصدر الرعب دخيلةَ فردٍ يحظى بالاحترام، كما أن رؤيتها للشرِّ تنعكس على قطاعٍ عريض من المجتمع، بل ربما كان أعرض ممَّا دأَبَت القصص «الجماهيرية» على تناوله حتى تلك الآونة. أضف إلى ذلك أن العنصر الخرافي يُصوَّر هنا بصورةٍ تتَّسم بدرجةٍ ما من الواقعية، أي من احتمال

---

[٣] انظر: كتاب فكتور سيج بعنوان قصص الرعب في التقاليد البروتستانتية (١٩٨٨م)، ص٨.

[٤] انظر: بولدويك (مقدمة) لكتاب أوكسفورد للحكايات القوطية (١٩٩٣م)، ص٢٠.

[٥] تُعتبر «أولالَّا» من ميراث الأجداد؛ لأن شخصيتها وحالتها مستمَدتان، فيما يبدو، من أسلافها الموغلين في القِدم، وهكذا فإنها مثل مصاصي الدماء — شأنها في ذلك شأن أجدادها — قد عاشت وماتت مرَّاتٍ كثيرة.

وقوعه، كما يقترب من أسلوب «الخيال العلمي» ما دام يوحي بأن تجربة جيكل يمكن أن تتكرر لو كان قد ترك لنا سرَّ تركيب ذلك الدواء. ونجدُ أخيرًا أن أسلوب السرد فيها الذي يعتمد على ما يشهد به المعاصرون للأحداث في القصة، أي على شهاداتهم المجموعة؛ يمنحها طابع «الحضورية» المثير، أي وقوع الأحداث أمامنا، كما يحدث على المسرح، إلى جانب درجة من الثقة تزيد عمَّا نولِيه للذكريات التي تُروى بجانب المدفأة، وهو ما نجدُه في الشكل التقليدي لِقصص الأشباح. وسوف نبيِّن في الصفحات التالية السبب الذي جعل هذه القصة من أهم قصص الرعب وأشدها تأثيرًا منذ قصة «قلعة أوترانتو» مبتدئين بفنِّ السرد فيها.

الشهادة

تتَّسم تقاليد السرد في قصص الرعب بالتعقيد، ونادرًا ما كانت حكاية الرعب تقدَّم بصورة مباشرة «بسيطة»، من قصة «ميلموث الجوال» التي كتبها تشارلز روبرت (١٨٢٠م) وقصة «مذكرات خاطئ تائب واعترافاته» التي كتبها جيميز هوج (١٨٢٤م) إلى «دراكولا» (١٨٩٧م). وكثيرًا ما تزعم هذه الحكايات أنها قد جُمعت من عدد من المخطوطات المنفصلة والرسائل والشهادات المتفرِّقة التي تقدِّم في مجموعها وصفًا متماسكًا (إلى حد ما) للأحداث. وأصبحت هذه التقنية العلامة المميِّزة لمدرسة القصص التي تُسمَّى مدرسة «الإثارة» — وهي ضرب من القصِّ القوطي في الضواحي — والتي ظهرت في الستينيات من القرن التاسع عشر عندما قام بعض الكُتَّاب، مثل ويلكي كولينز، ببناء قصصٍ مثيرةٍ من الخطابات واليوميات وشهادات الأفراد واعترافاتهم. وتتَّفق حكاية ستيفنسون، إلى حد ما، مع هذا النسق؛ حيث نجدُ أنَّ فصلَين من أشد فصول القصة كشفًا عن الحقيقة (التاسع، والعاشر)؛ يمثِّلان وثيقتين منفصلتين كتَبَهما أبطال القصة، وأنَّ فصلًا ثالثًا (هو الفصل الرابع) يمثِّل في جانبٍ منه وصفًا صحفيًّا لجريمةٍ شنيعة. ومثل هذه التقنية تساعد على الإيحاء بتقديم الحقيقة ما دام يُفترض أن الوثائق المتباينة «أصدق» من الملاحظات المصطنَعة بصورةٍ سافرة، والتي يقدِّمها القاصُّ (الراوي) العليم بكل شيء، وإن لم يكن له وجود في دنيا القصة. وتساعد هذه التقنية على إثارة التشويق، ما دام المشاركون فيها من الأفراد لا يعرفون النتيجة الكاملة للأحداث؛ وبذلك يتأخر ورود التفسير الكامل حتى الصفحات الأخيرة، كما أنَّ مِنْ شأن هذه التقنية أيضًا رفع مستوى التأثير الشعوري للسرد، إذ إن الوصف الذي يقدِّمه الدكتور لانيون بنفسه للمشهد الذي

صدمه، أي تحوُّل هايد إلى جيكل، وحديث جيكل عن خوفه الشديد من اغتصاب هايد لشخصيته؛ أشدُّ «حضورًا» وإثارةً ممَّا كان يمكن أن يكون لو رَوَى هذين الحدثين راوٍ غيرهما.

وممَّا يزيد من دعم الصدق المفترض للشهادات أنَّها تصدر عن شهودٍ موثوقٍ بهم أو تتعلق بما يهمُّهم؛ فهُمْ طبيبان ومحامٍ، وهُمْ يستخدمون خبرتهم المهنية في التحقيق في اللغز الذي يواجههم، وهذا يزيد من شدَّة الصدمة عندما تفشل تحقيقاتهم، لكنه أيضًا يحدِّد طبيعة مشاغلهم وتوقعاتهم. وستيفنسون يقدِّم حكايته باعتبارها «قضية» أو «حالة»، وهو ما يعني تطبيق الإجراءات الخاصة بالمعرفة والشهادة القانونية والطبية، لكنها قضيةٌ أو حالةٌ غريبة، وترجع غرابتها إلى هدْمِ التوقعات المرتبِطة بهذه الإجراءات وأشكال الكتابة عنها.

وقصة «القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد» مبنيةٌ بناءَ اللغز، كما تشبه القصة البوليسية من عدَّة وجوه؛ إذ إنَّ ثمانية فصول من فصولها العشرة مكرَّسة لاستيضاح المحامي للظروف الغامضة المحيطة بوصية جيكل، وتعامُله مع شخصٍ يُستبعد وجوده في الواقع وهو مستر هايد. وينبغي أن نذكُر أنَّ القصة تدور حول فردين فقط هما جيكل وهايد، حتى الفصل التاسع الذي يشهد فيه الدكتور لانيون تحوُّل هايد إلى صديقه جيكل. وكانت الشخصيات «داخل» القصة، وكذلك أوائل قرائها يعتقدون أن هذا هو الواقع، ومن شأن هذا أن يؤثِّر في قراءتنا، خصوصًا بسبب تفهُّمنا لشكوك الذين يحقِّقون في اللغز وتوقعاتهم. فلننظر إلى المظاهر، فلم يكن لدى القراء الأوائل ما يستندون إليه سوى المظاهر؛ إذ ما أبعدَ احتمالَ مصاحبة الدكتور جيكل الأعزب المحترم لإدوارد هايد الشابِّ «اللعين». وعندما يضغط المحامي أترسون على الدكتور جيكل طالبًا منه المصارحة الكاملة؛ يعترف جيكل بأنه يهتمُّ اهتمامًا كبيرًا بل كبيرًا جدًّا بشابٍّ ليس ابنه، بل هو غريب تمامًا بالنسبة إلى أقدم أصدقائه، ويُسمح لهايد باستعمال منزل جيكل بحريةٍ كاملة، بل ويُخَصَّصُ له بابٌ خلفيٌّ خاصٌّ، وله دفتر شيكات يسدِّدها الرجل الأكبر سنًّا. ويقول أترسون: «إنني أشعر بقشعريرةٍ باردةٍ حين أتصوَّر هذا المخلوق وهو يتسلَّل إلى جوارِ فراش هنري.» ونعلم فيما بعد أن هايد يتجوَّل على شاطئ النهر ليلًا، وأن جيكل قد أعدَّ له منزلًا خاصًّا به في «سوهو»، وهو منزل يحتوي من الأثاث والفرش ما يتَّفق مع أذواق جيكل الرفيعة، فيما يبدو، لا مع أذواق هايد. ومن المفترَض باستمرار أنَّ هايد يبتزُّ جيكل، وجيكل يُطَمْئِنُ صديقه المحامي قائلًا: «ليس الأمر كما تتخيل؛ ليس بهذا السوء.»

ولكن تُرى ماذا كان المسكوت عنه الذي ظنَّ جيكل أن المحامي تخيَّله، وهو ما فهمَه كلٌّ منهما وإن لم يفصحا عنه؟! يبدو أن المؤلف رسَمَ هذه الظروف بحرصٍ شديدٍ بحيث تشير — دون تحديدٍ فعليٍّ — إلى الاشتباه في أن علاقة جيكل بهايد تقوم على ارتباطٍ غراميٍّ من نوعٍ ما. فالابتزاز مقترنٌ من زمنٍ بعيدٍ بالشذوذ الجنسي. ويقول ريكتور نورتون: «قبل صدور قانون الجرائم الجنسية عام ١٩٦٧م، كان القانون الذي يحظر علاقة الشذوذ الجنسي يُشار إليه بتعبير «ميثاق الابتزاز»؛ لأن عددًا كبيرًا، بل ربما كانت معظم محاولات الابتزاز تتعلق بالتهديد بفضحِ شذوذ أحد الرجال، سواء كان في الواقع ذا ميولٍ جنسيةٍ مثليَّةٍ أم لا.»[٦] وأمَّا «ميثاق الابتزاز» المشار إليه فكان القانون الذي صدر عام ١٨٨٥م (العام الذي كتب ستيفنسون فيه هذه الحكاية)، وكان يحظر شتَّى ألوان العلاقات الغرامية فيما بين الذكور في السرِّ أو في العلن، وكان السبب في حبس أوسكار وايلد عام ١٨٩٥م.[٧] ولكن، حتى قبل صدور هذا التعريف القانوني للعلاقة الجنسية المحظورة؛ كانت القوانين تنصُّ على جريمةٍ أقدَمَ كثيرًا هي اللِّواط، وهي التي جعلت الابتزاز حرفةً مربِحة إلى حدٍّ بعيد. ويقول نورتون أيضًا: «إن عصابات الابتزاز المحترفة .. كانت شائعة، خصوصًا في العَقدَين الثاني والثالث من القرن التاسع عشر، وكان بعض ذوي الميول الجنسية المثليَّة يبتزُّون شركاءهم. وكان التهديد بفضحِ اللِّواطيِّ يمثِّل أكثرَ من نصف الدعاوى القضائية المرفوعة في القرن الثامن عشر ...» وقد تعرَّض أوسكار وايلد نفسُه لعدد من محاولات الابتزاز، وكان معظمها من جانب غِلمانٍ أُجَرَاء تعامَلَ

[٦] انظر: ريكتور نورثون، استطراد (مطوَّل بعض الشيء) حول الابتزاز قبل العصر الفكتوري، نُشر في موقع فيكتوريا على الإنترنت (http://www.listserv.Indiana.edu) بتاريخ مارس ١٩٩٨م.

[٧] كانت هذه اللائحة تمثِّل تعديلًا في قانون: «من أجل توفير المزيد من الحماية للنساء والفتيات، ولمحاربة بيوت الدعارة، ولأغراضٍ أخرى»، وكان الهدف الأساسي لذلك القانون هو حماية صغار الفتيات من استغلال مديري بيوت الدعارة الذين كانوا يتاجرون بالعذارى، وذلك برفع سِنِّ الرضا من ثلاثة عشر إلى ستة عشر عامًا. وأمَّا الباب الثاني فكان يتناول العلاقات الحميمة بين الذكور، وكان يتضمَّن تحريمًا أدقَّ وأشمل من أي تحريمٍ سبَقَ تنفيذه حتى تلك الآونة للممارسات الجنسية المثليَّة؛ إذ إن القانون قضى بتجريم أيِّ شكلٍ من أشكال «الأفعال الخارجة كثيرًا عن حدود الأدب مع شخصٍ آخر من الذكور» سواءٌ كان ذلك علنًا أو سرًّا، كما كان ينصُّ على عقوبةٍ غايتها الحبس سنتين مع الأشغال الشاقَّة، وهي العقوبة التي صدرت على أوسكار وايلد.

معهم بنفسه أو تعامَلَ معهم عشيقه ألفريد دجلاس. وإزاء هذا الارتباط، فمن المحتمل أنَّ الاشتباه في وجود صورةٍ ما من الارتباط الغرامي بين الدكتور جيكل ومستر هايد؛ قد خطَرَ لأوائل قُرَّاء ستيفنسون، ولا بُدَّ أنهم دُهشوا من اهتمام جيكل الكبير بالشابِّ هايد. ولا شكَّ أن الإيحاء بالشذوذ الجنسي يمثِّل افتراضًا معقولًا حتى تنجلي الحقيقة ويتَّضح أنَّ الرجلين شخصٌ واحد.[٨] ولم يكن ستيفنسون يستطيع، طبعًا، أن يصِفَ أو أن يشير مباشرةً إلى ما كان يُسمَّى «شذوذًا»، ويُعتبر ممَّا يُحظر الحديث عنه على صفحات قصةٍ منثورةٍ موجَّهةٍ إلى جماهير القُرَّاء العاديين؛ ولكنه كان يستطيع استغلال توقعات قُرَّائه وافتراضاتهم، بل ربما استغلَّها فعلًا. ولم يكن لقُرَّائه أن يشتكوا إن كانت مخيلتهم قد جاءت بما رفَضَ ستيفنسون أن يقوله فعليًّا.[٩] والواقع أنَّ أيَّ «رذيلةٍ محظورٍ ذِكرُها» تهيِّئ للكاتب نصًّا دفينًا أو باطنًا قويَّ التأثير في إطار الحبكة المثيرة التي تتناول الأسرار، وحيث يتَّضح أنَّ ما كان يبدو من علاقةٍ «شاذَّةٍ» هو آخرَ الأمر علاقةٌ «خرافيةٌ» أو «خارقة». ويُعتبر هذا من ثمار الإطار الخاص للتوقعات التي بُنيت عليها القصة، ألا وهو استخدام الإجراءات وأشكال المعارف القانونية والطبية (وباستثناء الأدب المكشوف كانت هذه تكاد تمثِّل الفرصة الوحيدة لمناقشة الشذوذ الجنسي بين دفَّتَي كتاب) ويُضاف إلى ذلك ارتباط هذه الإجراءات والأشكال المعرفية بالمبادئ العقلانية وهي المبادئ التي ينجح التفسير الخرافي نجاحًا باهرًا في قلبها رأسًا على عقب.

ويتبدَّى أكبر تأثيرٍ لانقلاب التوقعات فيما يرويه الدكتور لانيون، حيث يكشف لنا للمرة الأولى أنَّ الرجلين في الحقيقة رجلٌ واحد. فإذا كانت تحقيقات المحامي أترسون تقوم على توقعات وإجراءات التحرِّي القانوني؛ فإن قصة لانيون مبنية — بدرجةٍ أكبر من

[٨] انظر: المناقشة المفصلة للإيحاء بالشذوذ الجنسي في حكاية ستيفنسون في الدراسة التي كتَبَها «وليم فيدر» بعنوان: «أطفال الليل: ستيفنسون والسلطة الأبويَّة» في كتابٍ من تحرير هيرش وفيدر (١٩٨٨م)، ص١٠٧–١٦٠.

[٩] يبدو من تعليق الشاعر جيرارد مانلي هوبكينز أنَّ «الشفرة» التي يستخدمها ستيفنسون في بناء الحبكة، أي اعتماده على الإلماح غير الصريح؛ قد حقَّقتْ بعض النجاح، فهو يقول لروبرت بريدجز: «ربما يكون مشهد دَوْس الطفلة بالقدمين من الأعراف القصصية؛ إنه يتحدث عن أشياء لا تناسب القصص الخيالية.» وأُعيد طبعه في كتاب «روبرت لويس ستيفنسون: التراث النقدي» من تحرير بول ميكسنر (١٩٨١م)، ص٢٢٩.

الوعي — على أساليب مهنة ذلك الطبيب. لقد استجاب لانيون لالتماس جيكل بمساعدته في أمرٍ عاجل، أي أن يأتي بمواده الكيميائية ويسمح لأحد الغرباء (هايد) بدخول منزله ليلًا. وعندما يصل هايد يستقبله لانيون في العيادة كأنما هو أحد مرضاه، بل يحاول أن يحوِّل هايد إلى «حالة مَرَضية»:

فالواقع أنه لَمَّا كان جوهر هذا المخلوق نفسه يتَّسم بشذوذٍ وسوءِ تكوينٍ فطريٍّ يواجهني — ولنقُل إنه كان خصيصةً تُدهشك، وتأسرك، وتثير تقزُّزك ... — فقد أُضيف إلى اهتمامي بطبيعة الرجل وشخصيته فضولٌ لمعرفة أصله وحياته وثروته ومكانته في دنيانا. [ومِنْ ثَمَّ فقد] جلستُ في مقعدي المعتاد محاوِلًا قدْرَ الطاقة محاكاة أسلوبي المعهود مع المرضى؛ أقصد بقدْرِ ما استطعتُ أنْ أقوم به في هذه الساعة المتأخرة، ونظرًا إلى طبيعة مشاغلي آنذاك، والرعب الذي يُلقيه زائري في قلبي.

وأمَّا مشاغل لانيون وإجراءاته فكانت ممَّا يميِّز الكتابة الطبية في ذلك الوقت. فمعرفة أصلِ «غير السَّويِّ»، وحياته، وثروته، ومكانته في الدنيا؛ من العوامل التي توفِّر معلوماتٍ مهمَّةً للدراسة الإكلينيكية للحالات المَرَضية.[١٠] ويعتقد لانيون أنه يواجه مريضًا مجنونًا، «يقاوم هجوم انفلاتٍ عصبي»، لكنه قبل أن يجِدَ الوقت الكافي لكتابة تحليله؛ إذا بهذا المخلوق الشائه قد تحوَّل إلى صديقه هنري جيكل، أحد زملاء مهنته، الذي يتمتع — إذا اقتصرنا على المظاهر وحَسْب — «بأصلٍ وحياةٍ ومكانةٍ» لا تشوبها شائبة. ومع ذلك فقد يحتوي في داخله على ذلك السفَّاح المقزِّز، غيرِ السَّوي، شاذِّ الفطرة، أي هايد. وهكذا فإنَّ تحوُّل «المريض» إلى طبيب، والمنفلت عصبيًّا إلى رجلٍ محترَمٍ من الطبقات الوسطى، واندماج شخصين في شخصٍ واحد، كل هذه يمثِّل انقلابًا في القصة وانقلابًا معرفيًّا أيضًا. إذ ما إن تسقط أشكال الفهم الطبي، والقانوني، والعقلاني؛ حتى تتحوَّل قضية جيكل وهايد إلى القضية الغريبة لحكاية من أشدِّ حكايات الرعب أصالةً على مرِّ الزمن.

[١٠] تُعتبر افتتاحية إحدى حالات (السادية) التي رصدها كرافت-إيبينج نموذجًا مميَّزًا في هذا الصدد؛ إذ تقول: «الحالة ٢٤، السيد فلان، أبوه مُصاب بالزهري، وتُوفِّي بمرضِ الخبل الناجم عن الشلل النصفي، وأمه مصابة بالهيستريا والوهن العصبي. وهو شخصٌ ضعيفٌ، وتكوين جسده يعاني من العُصاب، ويمثِّل عدَّة ملامح تشريحية تدل على التدهور.» انظر الأمراض النفسية الجنسية (١٨٨٦م، ١٨٩٢م)، ص٧١. ومن الأرجح أن تشبه حالة هايد، إذا كُتبت بالتفصيل، الحالة المذكورة؛ إذ تشهد على «العلاقة بين الشهوة وبين القسوة».

الرعب من ذاتي الأخرى

وقد انتبه النقَّاد فور نَشْر «القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد» إلى أنها لم تكن مجرد روايةِ رعبٍ تُباع بشلنٍ واحدٍ، أو حكاية مفزِعة تُقرأ للتسلية في عطلة عيد الميلاد المجيد عام ١٨٨٥م؛ فقال بعضهم: «إنَّ قصةً تتميز بما هو أكبر وأعمق من مهارة السرد وحَسْب؛ فإنها تمثِّل استكشافًا رائعًا للمناطق الخبيئة للطبيعة البشرية.» وقالوا: إنها «حكايةٌ ذاتُ مغزًى»، و«قصةٌ رمزيةٌ عميقةٌ». وقالت صحفيةٌ مسيحية: «إنها قصةٌ رمزيةٌ تستند إلى الطبيعة المزدوَجة للإنسان، وهي حقيقةٌ علَّمنا إيَّاها القديس بولس في سِفر «الرسالة إلى مؤمني روما»، الإصحاح السابع.»[١١] بل إن حكايته كانت موضوعًا لموعظةٍ ألقاها الكاهن من فوق منبر كاتدرائية القديس بولس. فإذا جرَدْنا القصة لنرى عناصرها الجوهرية؛ وجدْنا أنها تدور حول الصراع بين الخير والشرِّ، وبين الواجب والغواية في داخل «نَفْس» الإنسان، أي أنها قصةٌ قديمةٌ قدمَ سِفر التكوين في الكتاب المقدس. وجيكل يبحث معضلته في ضوء ذلك مشيرًا إلى «الحرب المستعِرة دائمًا بين أعضائي»، وإلى أنَّ «عناصر هذه المناظرة قديمةٌ وشائعةٌ منذ أن وُجِد الإنسان على ظهر الأرض». وكانت نشأة ستيفنسون نفسه قد غرست في نفسه إحساسًا قويًّا بالخطيئة، وهو الذي يظهر في الأساس الأخلاقي للحكاية. وقد كتب إلى إدوارد بيرسيل في فبراير ١٨٨٦م يقول: «إن في نفسي انشغالًا بهذه المشكلات [الأخلاقية] بسبب انتمائي إلى الكنيسة المشيخية الاسكتلندية القديمة … وقد ظهر هذا الجانب الاسكتلندي بوضوحٍ في جيكل.» [١٢] ولكن هذا الاستنباط «الأخلاقي» من الحكاية كان من أوائل نماذج التبسيط المخلِّ الذي تعرضت له، ولا بدَّ من وضعه في سياقه الصحيح.

عندما غطَّى آدم وحواء جسديهما بعد إحساسهما بالعار، لم يرتديا من فورهما حلَّة المراسم والإزار المنفوش، وبتعبير آخر نقول: إن حكاية ستيفنسون، على الرغم من إطارها

[١١] ميكسنر (١٩٨١م)، ص٢٠٤، ٢٢٣، ٢٢٤.

[١٢] بوث وميهو (١٩٩٥م)، ص٢١٢–٢١٣. وفيما يتعلق بالنشأة الدينية لستيفنسون؛ انظر: سيرته التي كتَبَها ج. سي. فيرناس بعنوان «رحلة إلى مهب الريح: حياة روبرت لويس ستيفنسون» (١٩٥٢م)، ص٢٨–٣٣. وفيما يتعلق بتأثيرها في جيكل وهايد، والحكاية الخاصة بالموعظة؛ انظر: كتاب كريستوفر فرايلنج بعنوان «كابوس: مولد الرعب» (١٩٩٦م)، ص١٢٥–١٢٩.

«الأخلاقي» اللازمني، كانت بنت عصرها إلى حدٍّ كبير. وإذا كانت قصةً رمزيةً فإنها مبنيَّةٌ من الظروف التاريخية، والعلاقات الطَّبَقية. وإدوارد هايد تجسيدٌ لما يشير إليه جيكل بتعبير «العناصر السفلية» في كيانه؛ لكنه يوضِّح أيضًا أنَّ هذه العلاقة «التراتبية» قد تشكَّلت بسبب تطرُّف جيكل في الالتزام بقواعد الاحترام والرأي العام. وهو يشرح ذلك قائلًا: «إن أسوأ عيوبي كان طبْعَ المَرَح اللحوح، وهو الذي كان يجِدُ الكثيرُ فيه السعادة، لكنني وجدتُ أنه يتناقض مع رغبتي العارمة في أن أسير مرفوعَ الرأس، وأن أَظهر أمام الناس بوجهٍ يتميز بقدرٍ أكبر من الوقار المعتاد.» وينهار عند هذه النقطة التعارُض البسيط بين الخير والشر؛ إذ يواصل جيكل حديثه قائلًا: «وكم من إنسانٍ تباهى بأمثالِ ما كنتُ أرتكبه من المنكر؛ لكنني كنتُ ألتزم بالمثل العليا التي وضعتُها لنفسي، فكنتُ أَنظر فيما أرتكبه وأخفيه بإحساسٍ بالعار، يكاد يبلغ حدَّ المرض.» وهذا الإحساس المتضخِّم بالخطيئة هو الذي بنى شخصية هايد. إذ كلما كان «جيكل» يسعى لفعل الخير والظهور بمظهر رجل الخير؛ كان هايد يزيد شرًّا. أي أن هايد كان من خلق خياله موجودًا بالقوة لا بالفعل، حتى اكتشف جيكل عقَّارًا يستطيع تجسيد هذه الانقسامات. وهذه هي النقطة التي تبدأ فيها القصة الرمزية في ارتداء رداء الطبقة الاجتماعية والتاريخ:

> قلت لنفسي: لو كان من الممكن أن يشغل كل عنصر منهما هويةً مستقِلة لتخلصَت الحياة من جميع أعبائها الرازِحة؛ إذ يتمكن المسيء أن يمضي في طريقه دون تنغيص الطموحات وآيات الندم الصادرة من تَوْءَمه المستقيم، ويتمكن المحسن أن يسير بثباتٍ واطمئنانٍ في طريقه القويم؛ فيفعل الخير الذي يجِدُ فيه سروره، دون أن يتعرض للعار وللتوبة بسبب ما ترتكبه أيدي ذلك الشرير الدخيل!

ويبدو أن جيكل كان يراقب سلوك فردين متميزين تصادَفَ أن تعايشا في وعيه. وكان العقَّار قادرًا على تحويل هذه الفكرة إلى واقعٍ ملموس. وعندما أطلق جيكل ذلك الشخص الآخر — هايد — من داخل ذاته؛ بدأ يحدِّد صفاته، ويكسوه ملابس معيَّنة، ويصنفه بين الأحياء، ويتحدث عن الشِّرعة الخلقية التي أوحى بها شاعرًا بالضيق من سلوكه، وإن كان يجِدُ فيه ما يجعله مزهوًّا جذلًا. إنَّ هايد هو التعبير الجسدي عن علاقته بالمبادئ العليا لجيكل؛ فهو أقصر قامةً وأقبح منظرًا من «توءمه الأشدِّ استقامةً»، أي

جيكل، وهو الذي قيل لنا إنه متين البنيان، ذو وجهٍ وسيمٍ. وما إنْ خرجتْ من ذاته هذه التقسيمات وتجسَّدتْ؛ حتى استطاع جيكل أن يُطلق عِنان استقامته:

> كانت الملاذ التي أسرعتُ بنِشْدانها بَعد تنكُّري «غير محترمة» كما قلت، ولا أحبُّ أن أستعمل تعبيرًا أقسى من هذا. وأمَّا على يدَي إدوارد هايد؛ فسرعان ما تحوَّلتْ إلى وقائع بَشِعة. وعندما كنتُ أعود من هذه الشطحات؛ كثيرًا ما كان يغمرني العجب من انحلالي الذي يقوم به قريني نيابةً عني! .. وكان هنري جيكل أحيانًا ما يُذهله ما يفعله إدوارد هايد، ولكن موقفه لم تكن له علاقة بالقوانين العاديَّة، وكان يُرخي قبضة ضميره بصورةٍ خبيثة.

قرود وملائكة

يتصور جيكل أن هايد يمثِّل «العنصر السفلي» في ذاته. وإذا كان التوصيف — بالدرجة الأولى — توصيفًا أخلاقيًّا أو حتى ميتافيزيقيًّا؛ فالتعبير يوحى إيحاءً قويًّا أيضًا بأنَّ هايد أدنى موقِعًا على سُلَّم التطور (كما كان يعتقد آنذاك) من توءمه الأشدِّ استقامةً وعلوَ هامَةٍ، أي هنري جيكل. وإشارة جيكل إلى ارتقائه في «الدرب الصاعد»؛ إشارةٌ أيضًا إلى موقعه المتصوَّر على ما كان يُعتبر «سُلَّم» التطور الثقافي والبيولوجي. والفرد الذي يتَّسم بانخفاض الهامَة أو عدم «استقامة» عُودِه؛ يوحي بطبيعة القرد، وهو ما يوحي هايد به دون شكٍّ. وكان أترسون يراه أقرب إلى الأقزام وسكان الكهوف، وتحدَّث شخصٌ آخر عن هجومه على «كيرو» بضراوة «قرد متوحش»، وجيكل نفسه يشير إلى حقد هايد الذي «يشبه حقد القرود»، وإلى طبيعته الحيوانية، ويذكُر كم يكسو الشعر جسد نقيضه. ويصل هذا الإيحاء إلى ذروته آخر الأمر، فيأتي برؤيةٍ مفزِعة لانحطاط الأخلاق البدائي الأزلي. و«كان أفظع ما في الأمر أنَّ طين الحفرة؛ كان يبدو قادرًا على الصياح وإصدار الأصوات. والتراب الذي لا شكل له؛ يستطيع الإشارة بيديه وارتكاب الخطايا. وما كان ميتًا لا صورة له؛ استطاع القيام بوظائف الحياة غصبًا!» ويتَّفق هذا التأكيد على أن الإجرام أو ارتكاب الخطايا حالةٌ بُدائيةٌ أو نازعٌ بدائيٌّ مع ما نجِدُه في عدد من الكتابات في تلك الفترة، وهي التي كانت تطبِّق نماذج التطوُّر؛ لتفهم الإجرام والخلل النفسي. وأما فكرة «الانتكاس» نفسها التي ساعدت على تفسير السلوك غير الأخلاقي بأساليب علمية؛ فقد أتاحت أيضًا بعض الإمكانات للتصوير القوطي الذي أصبح قادرًا على تصوير التَّرِكات

البشعة التي خلَّفها الأسلاف على نطاقٍ بالغ الاتساع والعمق، بحيث تمتدُّ جذورها إلى أصول الحياة البشرية نفسها. وسوف يتسنَّى لنا إدراك ذلك إذا قارنَّا ما كتبه الطبيب النفسي هنري مودسلي عام ١٨٨٨م بعنوان «ملاحظات على الجريمة والمجرمين» بتصوير ستيفنسون لجيكل وهايد:

> إن العلاقات الأخلاقية، أو ما يسمَّى بالمشاعر الأخلاقية … تمثِّل أحدث وأرفع ثمرات التطور النفسي. ولمَّا كانت أقلَّ الأحاسيس ثباتًا؛ فإنها أول ما يختفي في حالة التدهور النفسي، وما هو — بالتعبير الحرفي — إلا تفكيكٌ للنفس أو هدمها. وحين تُنتزع هذه الأحاسيس؛ تنكشف المشاعر البُدائية الشديدة الثبات مجردةً لا تشعر بالعار مثلما كانت في العصور السابقة على الأخلاق عند الحيوان والإنسان على وجه الأرض.[١٣]

والمنطق الذي يتوسل به مودسلي يقترب كثيرًا من منطق جيكل الذي يتصور أن هايد أدنى منه منزلةً، وأنه يمثِّل «الحيوان داخله»، وهكذا فعندما يسمح له بالتخلِّي عن الأحاسيس الأخلاقية «المستعارة» إذا به يسقط برأسه في بحر الحرية. والعقَّار الذي يعدُّه جيكل يتيح إجراء «التفكيك» الذي يشير إليه الطبيب النفسي؛ فالتفكيك يعني: التحلُّل من روابط السلوك المتحضر المكتسَب. وهكذا تكون العودة إلى إطلاق عِنان النفس «البُدائية» السابقة لعهود الأخلاق. وعندما يتجسَّد هايد يتَّخذ الشكل «المنحطَّ» الشبيه بالقرود والبعيدَ عن الشرِّ، وهو شكل النموذج الإجرامي حسبما وصفه خبراء الطب والقانون. ونقول باختصار: إنَّ هايد هو التعبير المادي عن الانحطاط الخلقي طبقًا للفكر الذي ساد بعد داروين.[١٤]

---

[١٣] هنري مودسلي «ملاحظات حول الجريمة والمجرمين»، مجلة العلوم النفسية (١٨٨٨م)، ص٣٤، ١٦٢.

[١٤] ممَّا يوحي بأنَّ ستيفنسون كان يناصر مبادئ نظرية التطور، وبأن هذه المبادئ ساهمت في تصويره علاقة جيكل بهايد، مقال نشره عام ١٨٨٧م بعنوان «منزل الكاهن البروتستانتي» (في اسكتلندا) ويتساءل فيه قائلًا: «هل من الأغرب أن أحمل في ذاتي بعضًا من أنسجة جدي الكاهن، أم أن يحمل هو في ذاته — وهو السيد المهذَّب الهادئ الوقور المحترم القانع بما قُسم له في أثناء جلوسه في غرفة مكتبه الباردة — دفقةً من الدماء الأصيلة التي لم تكن تنتمي إليه، وأقصد بها بعض الذكريات عن قِمم الأشجار مثل نيجاتيف الصور الفوتوغرافية التي لم تُطبع، بحيث تظلُّ خامدةً في نفسه؟ وأضف إليها بعض غرائز قِمم

عالَم من العاديين الذين يرتكبون الخطايا سرًّا

ابتكر ستيفنسون في شخصية هايد كائنًا شائهًا خياليًّا جديدًا، مثل المخلوق الذي صَنَعه فرانكنشتاين، وإن كان قد تشكَّل من المعتقدات السائدة في أنثروبولوجيا التطور والدرس العلمي للجريمة، وهو يُطلقه ليجوب بقاعَ لندن المعاصرة. وعندما يُعرب عن دهشته للانحطاط «الشائه» لهايد، وكذلك عندما تقول الشاهدة على مقتل كيرو: إن سلوك المجرم كان يتَّسم «بضراوة قردٍ متوحش»؛ فإنهما يذكِّرانِنا بالأوصاف الكلاسيكية للنموذج المُتَأَسِّلِ للإجرام (أي الموروث عن الأسلاف)، ويقول لومبروسو إنَّ مثلَ هذا المجرم «لا يرغب وحَسْب في إطفاء جَذْوة الروح في الضحية، بل يجب كذلك أن يمثِّل بالجثة، ويمزِّق اللحم، ويشرب الدم.»[١٥] ولكن حكاية ستيفنسون في الواقع أشدُّ تعقيدًا وإقلاقًا من ذلك؛ إذ إنه استخدم هذه الصورة للإجرام الوحشي حتى ينظر فيما أدَّى إلى نشأتها في الواقع، ألا وهو عالم الأطباء والمشرِّعين. إذ إن هايد موجود داخل جيكل، وربما داخل آخرين أيضًا، وحكاية ستيفنسون لا تستخدم أيًّا من حيل إبعاد الأحداث عن عالم القارئ، وهي الحيل المألوفة في القصص القوطي التقليدي، بل تجعل موقعَ رعبِ عودةِ العناصر المتأسِّلة في وسط لندن، وفي الزمن الحاضر، وفي جسدِ مَن يمثِّل الطبقات المهنية ونفسِه. وهذا هو العالَم الذي تتأمله هذه الحكاية وتستكشفه؛ بسبب اهتمامها الرئيسي بالاحترام، وضروب الاستياء منه؛ إذ إنَّ جيكل يحاول أن يفصِل فصلًا قاطعًا مطلقًا بين ما هو محترمٌ وما هو حسِّي/جنسي؛ لكنه يفشل. ويرجع الفشل ظاهريًّا إلى خطأ في خلط مواده الكيماوية أو أنواعها، ولكن التجربة تفشل أيضًا لأن التقسيمات التي يتخيَّلها جيكل ويحاول تثبيتها؛ من المُحال الحفاظ عليها. فلم يكن «عدم النقاء» يقتصر على المواد الكيماوية وحَسْب، بل إنَّ الاختلافات التي يعتبرها مطلقةً؛ مشوشةٌ في الواقع، ومختلطةٌ قطعًا.

الأشجار التي استيقظتْ ثم وطئتْها الأقدام؛ ومن المحتمَل لهذه الغرائز أن تكون شجرية مَحْضة [وكان داروين يستخدم صفة «الشجريِّ» في الإشارة إلى القرود التي يفترض أن الإنسان انحدر منها]، (بحيث يصعُب التمييز بين هذه النزعات ونزعات القرود)؛ إذ تظلُّ تتواثب، وتُصدر أصواتها في مخِّ الكاهن الهرِم.» (ذكريات وصُوَر، في المجلد التاسع من أعمال الكاتب، من تحرير أندرو لانج (١٩١٢م)، ص٦٧). إنَّ جيكل سيدٌ مهذَّبٌ، «وقورٌ» أيضًا؛ لكنه يطلق سراح القرد في داخله.

[١٥] من كتاب «جينا لومبروسو–فيريرو» بعنوان: خصائص الإنسان المجرم طبقًا للتصنيف الذي وضعه شيزار لومبروسو (١٩١١م)، ص٢٥.

ويزعم جيكل أنه «مُرَكَّب» مثل «جميع الناس الذين نقابلهم .. مُركَّبٌ من خير وشر»، لكنَّما «إدوارد هايد وحده، بين بني البشر، كان شرًّا خالصًا». ومع ذلك، فإنَّ هايد، على ما يبدو، يضمُّ بعض عناصر من جيكل في ذاته. كانت خطة جيكل الأولى أن يستخدم هايد ذريعة مُنجية، أي أنه كان عليه أن يقوم، مثل القاتل المحترف أو البلطجي، بالأفعال التي يخجل جيكل من القيام بها. فإذا حدثتْ محاولاتٌ للثأر أو القِصاص؛ فلن يمسَّ جيكل أدنى ضرٍّ:

> فَلْأَهرب وحَسْب داخلًا من باب المختبر، وامنحني ثانيةً أو ثانيتين لخلطِ الشراب وتجرُّعه ... ومهما يكن ما فعله إدوارد هايد فسوف يختفي كالبقعة التي تتركها الأنفاس على سطح المرآة، وسوف تجِدُ في مكانه رجلًا يجلس في هدوء في منزله، ويسهر الليل منكبًّا على دراساته، ويملك أن يسخر من أي ريبة فيه، أي هنري جيكل!

إذا كان جيكل قد «استأجر» هايد طلبًا لراحة باله وأمنه؛ فإنه قد أساء التقدير، لأنه إذا كان هايد شرًّا خالصًا، وكان جيكل يعتقد أنه يستطيع أن يسخر من الريبة؛ فإن هايد نفسه لم يكن يشاركه هذا الرأي. بل إنَّ أولى الكلمات التي نسمعها من فمه، حسبما رواها إنفيلد في قصته عن وَطْء هايد بأقدامه على الطفلة، تدلُّ على أنَّ هايد يتصرف بأسلوبٍ شديدِ الشبه بأسلوب جيكل. ويقول إنفليد:

وفي وسط تلك الحلقة، كان ذلك الرجل الذي يتَّسم ببرودٍ أسودَ ساخر، وإن كنتُ أدرك أنه كان خائفًا هو الآخر، ولكنه كان يخفي خوفه، ويبدو في الواقع — يا سيدي — مثل إبليس. وعندها قال: «إذا اخترتم استغلال ما حدث؛ فلن أستطيع بطبيعة الحال منعكم. وإن كان كل سيِّدٍ محترمٍ يفضِّل أن يتجنب الفضيحة.» ثم قال: «حدِّدوا قيمة الغرامة.»

ولا تكاد سخرية هايد «الشيطانية» تخفي اهتمامه الشديد بسمعته. تُرى هل كان إبليس يحاول حقًّا إقناع الشهود بأنَّ الحادثة التي داس فيها على الطفلة كانت «عارضة»؟ ولماذا يكترث بما يظنُّونه عنه إذا كان فعلًا شرًّا خالصًا؟ لا يبدو أنَّ هايد يؤدِّي وظيفةً مفيدةً هنا، ما دام قد كلَّف جيكل مائة جنيه، (وكان مبلغًا بالِغ الضخامة في ذلك الوقت) إلى جانب ضرورة صَرْف الشيك من البنك، وهو ما يورِّط اسم جيكل في هذه المسألة، وذلك عينه ما كان يرجو تحاشيه. وقال إنفليد لهايد: «إن كنتَ تتمتَّع بأي أصدقاء أو مصداقية

.. فسوف تخسر هذا وذاك إن لم تدفع.» ولكن الواجب كان يقضي بالحفاظ على سمعة جيكل بعدم إنفاق أمواله. والواقع أن البلطجي الذي يستخدمه جيكل لم يساعد الطبيب على السخرية من الاشتباه فيه، بل جرَّه إلى التعرُّض للتحرِّيات التي أدَّت آخر الأمر إلى هلاكه، إذ إنَّ أترسون الذي استمع إلى هذه القصة، وكان منزعجًا من قبل بسبب الوصية، يقرِّر أن يكشف أسباب سيطرة هايد على جيكل.

والحقيقة أن الوصية التي أيقظت شكوك أترسون أولًا؛ تساهم في إحباط خُطط جيكل، إذ إنَّ جيكل يكتب وصية «بحيث أستطيع أن أدخل في شخصية إدوارد هايد من دون خسارةٍ ماليةٍ إن حدَثَ لي حادث وأنا في شخصية هنري جيكل.» ومن الطريف أن جيكل يستخدم ضمير المتكلم عندما يشير إلى هايد ومواصلة حياته دون خسارة مالية؛ أي أنَّ جيكل يريد أن يتمتع بجميع مزايا موقعه والعيش الرخيِّ الذي ظفرَ به في الدنيا باعتباره ذاته نفسها، حتى لو اضطُر إلى التمتُّع بذلك كله في شخص هايد، الذي يُفترض أنه شرٌّ خالصٌ وغيرُ مرتبِط باهتمامات جيكل وغيرُ مكترثٌ بها. ومعنى إعداد جيكل للوصية أنه يستمسك بنُظُم الدعم المالي ويراعي الإجراءات التي صادقتْ عليها الطبقة التي يحاول أن يهرب بتجربته من قواعدها وقِيَمها الأخلاقية. وهكذا فإن هذه الرغبة في الجمع بين الشيء وضدِّه، أي نبْذ القيم البورجوازية والحفاظ عليها في الوقت نفسه، يمثِّل في الواقع استمرارًا يتَّسم بالنفاق للازدواجية التي كان جيكل يسعى أصلًا إلى تفاديها، ويوقعه في أشراك الشبكة نفسها، أي شبكة الخطايا المرتكَبة سرًّا والعقوبات التي تجرُّها عليه، وهو ما كان يحاول الفرار منه. أي أن جيكل لا يظفر بالحرية أبدًا في شخصية هايد في الحقيقة؛ لأن هايد لا يتحرر أبدًا في الحقيقة من جيكل وما يمثله.[١٦] ونقول باختصار: ربما كان أغرب ما في قضية جيكل وهايد (أو أشدُّ ما يُقلق فيها)؛ هو اتِّضاح أنها ليست غريبةً إلى الحدِّ المفترض على الإطلاق. ومن شأن المظاهر أن تدلَّنا على أننا لو قرأنا اعترافات الآخرين في دائرته؛ فسوف ندرك أن هذه القضية عاديَّة بدرجة كبيرة.

---

[١٦] نجِدُ تأكيدًا مماثلًا في قراءةٍ من أشدِّ قراءات جيكل وهايد أصالةً منذ سنوات عديدة ألا وهو الفصل الذي كتبه ستيفن أراتا عن ستيفنسون في كتابه: قصص الضياع في عَقد نهاية القرن للعصر الفكتوري (١٩٩٦م). وتشير قراءته الدقيقة الممتازة للنص إلى أنَّ هايد يتلقَّى العلم بقواعد الحياة البورجوازية على امتداد القصة، وينضج حتى تلائمه ملابس جيكل عندما ينجح في التغلب على شخصيته.

أسرار في كل مكان

بعد مقتل كيرو، يقرِّر جيكل أن ينبذ هايد، ويحاول العودة مطمئنًا إلى حياة الاحترام من جديد. وبعد فترة تعود المُغريات ويصبح «خاطئًا عاديًّا يرتكب خطاياه سرًّا» مرةً أخرى من دون مساعدة هايد. ونجِدُ في هذه العبارة حقيقةً يتكرر الإلحاح إليها في القصة، ألا وهي أن الوضع «الحالي» لمجتمعه وضعٌ يرتكب فيه الأفراد خطاياهم سرًّا، وإن كانوا أيضًا يحافظون على الأسرار أو يخفونها أو يحاولون اكتشافها وفضحها. فالقصة تزخر بأسرارٍ كثيرة لا يُكشف عنها أبدًا. خذْ إنفيلد مثلًا (وهو نجمٌ شهيرٌ من نجوم المدينة): إنه يعود إلى منزله «من مكان ما في آخر الدنيا في نحو الساعة الثالثة من صباح يومِ شتاءٍ حالِكٍ»، لكنه لا يذكُر، على وجه الدقة، أين كان وماذا كان يفعل. وهو يتَّبع مع أترسون سياسة مفادها أنه «كلما بدَتْ في الأمر ورطةٌ ماليةٌ؛ أقللتَ من طرح الأسئلة.» ويتنبأ إنفليد بما يحدث إذا خرق تلك القاعدة: «إنَّ إلقاء سؤالٍ يشبه دحرجةَ حجرٍ من الأحجار برِجلك وأنت جالس في هدوء على قمةِ تلٍّ، فإذا به قد جرف أحجارًا أخرى، وسرعان ما يسقط أحدها على رأس رجلٍ عجوزٍ لطيفٍ (وهو آخر ما جال بخاطرك) وهو يجلس مطمئِنًا في حديقة منزله الخلفية؛ الأمر الذي يرغم الأسرة على تغيير اسمها.» وقد يكون السير دانفرس كيرو، عضو البرلمان المسنَّ، هذا «الرجل العجوز اللطيف» الذي لاقى حتفه في الهزيع الثاني من الليل على شاطئ النهر بصورة تثير الشبهات. قالت الخادمة إنها:

> بينما هي جالسة شاهدت رجلًا هرمًا وسيمًا أبيض الشعر يسير في حارةٍ مقترِبًا من المنزل، ورأت رجلًا آخر بالغ القِصَر يتقدم لملاقاته، وإن لم تلتفت إليه كثيرًا أول الأمر. وعندما تقاربا إلى الحدِّ الذي يسمح بالتحادث .. انحنى الرجل الهرم وخاطب الرجل الآخر بأسلوبٍ ينمُّ عن التأدُّب الشديد، ولم يبدُ لها أن موضوع الحديث كان بالغ الأهمية، بل كان يبدو لها أحيانًا من إشارات يديه؛ كأنما كان يستفسر عن الطريق وحَسْب، ولكن ضوء البدر كان يسطع على وجهه في أثناء حديثه .. إذ كان فيما يبدو يوحي بطيبة القلب الغامرة والبراءة، في العالم القديم، وإن كان يوحي أيضًا بالسمو النابع من الرضا عن النفس القائم على أساسٍ متين. [التأكيد من عندي].

إذا نظرنا إلى ما قالته الخادمة؛ وجدناه مقيَّدًا بما بدا لها، ويعتمد اعتمادًا كبيرًا على الظنِّ. فلماذا تقول: إنه بدا بريئًا؟ وما الذي يجعله «يقترب» من الشاب بهذا «التأدُّب»

على شاطئ النهر في الهزيع الثاني من الليل؟ المعروف أن السؤال عن الطريق يعني أن المخاطَب الذي يعرف الطرق هو الذي يُشير بيديه، لا السائل. وعندما تعرف الشُّرطة أن القتيل في هذه الجريمة كان السير دانفرس؛ يصيح رجل الشُّرطة: «أواه يا رباه! هل هذا ممكن؟» وهو ردُّ فعلٍ مبالَغٌ فيه بعضَ الشيء. ما سبب اندهاشه الشديد؟ وما الظروف التي تُقلقه بصدد هوية مثل هذا القتيل في مثل هذه الجريمة؟ تُراه ذلك «الرجل العجوز اللطيف» (آخر من كان يخطر ببالك) بتعبير إنفيلد؟ وما الذي كان مكتوبًا في الخطاب الذي كان يحمله؛ الخطاب الموجَّه إلى أترسون، طالِبًا مساعدته المهنية؟ لن نعرف أبدًا. لكن ترانا على حق إذا ارتبنا في الأمر؟[١٧] النصُّ يقول: إننا على حق. أي أنَّ النصَّ يشجِّعنا فعلًا على تخيُّل وجود أسرار حيث لا توجد أسرار، وربما خالجتنا الريبة دون سبب. أي أنَّ قصة ستيفنسون تبيِّن بوضوحٍ أنك لا تستطيع الوثوق في المظاهر أبدًا.

البحث والإخفاء

وينتقص انعدام الثقة المذكور من تصديقنا لما يشهد به الآخرون، ويزعزع إيماننا بصدق ما نقرأ. فنحن نجِدُ منذ الصفحة الأولى أننا نواجه عالَمًا يحكمه الرأي العام، كما يحكمه الخوف من الفضح والابتزاز. بل يمكن لنا أن نقول: في الواقع، إنَّ المخلوق الشائه في جيكل وهايد هو الرأي العام؛ إذ يُلقي بظلاله المنذِرة بالكوارث على القصة برُمَّتِها، ويعتبر مسئولًا عن ابتسار حياة البعض ووفاة اثنين أو حتى ثلاثة. فالخوف من الفضيحة ذو قوةٍ جبارةٍ إلى الحدِّ الذي يلقي الرعب في قلب هايد نفسه، وهو الذي يدفع مائة جنيه للحفاظ على سمعةٍ طيِّبةٍ لم يكن يتمتع بها. ويشترك إنفيلد مع الطبيب في ابتزاز هايد «ولَمَّا كان القتل مستبعَدًا؛ فقد فعلنا ما يلي: القتل رعبًا؛ إذ قُلْنا للرجل: إننا نستطيع

[١٧] وقد وجَدَ قارئ من أوائل قُرَّاء ستيفنسون أيضًا هذه الظروف مريبة أو محيرة، واسمه فريدريك و. هـ. مايرز، إذ أرسل إليه قائمة طويلة من الأسئلة والوسائل التي يستطيع ستيفنسون الاستعانة بها في تحسين الحكاية (وإن لم يأخذ الكاتب بأيٍّ منها) مشيرًا إلى «غموض موقع المنزل الذي كانت الخادمة فيه. هل كان في وحي وستمنستر؟ كيف احتاج البارون إلى الاستفسار عن عنوان مكان مكتب بريد، وهو قريب إلى هذه الدرجة من مبنى البرلمان أو من منزله؟ لو كان منزل الخادمة في حي متواضِع، فكيف أتى البارون إليه؟» في ميكسنر (١٩٨١م)، ص٢١٥.

أن نثير فضيحةً كبرى، بل سوف نثيرها فعلًا حتى تسوء سمعته في لندن من أقصاها لأقصاها.»[١٨] وعندما يقدِّم هايد الشيك باسم شخصٍ آخر، يفترض إنفيلد أنَّ هايد يبتزُّ جيكل، وعندما يسمع أترسون بهذا يقرِّر أن يتحرى الأمر بنفسه ويرى ما يخفيه هايد من أسرار. وهكذا فإنهم جميعًا مدفوعون بالحاجة إلى الحفاظ على المظاهر وحماية النظام الذي يعتمد على «المصداقية»، مهما يظهر من إفلاسه. وهذا هو الذي يشجِّع أترسون على أن يعمل محقِّقًا هاويًا للكشف عن لغز جيكل وهايد. ولكنه إذا كان معظم المحقِّقين يبحثون عن الأسرار ابتغاء «حل» الجرائم والكشف عن التفاصيل؛ فإن أترسون ينطلق في عمله بدوافع مضادَّة.[١٩] إنه محقِّق لا يريد في الحقيقة أن يعرف، بل إنَّ مطلبه الرئيسي هو حماية صديقه من الفضيحة، وإنقاذ «مصداقيته». كان يقول في نفسه إنه لو استطاع أن يعرف أسرار هايد؛ فسوف يستطيع مقايضتها بنسيان أسرار جيكل. أو قُل إن ذلك ما خطر بباله وحَسْب، فعندما يرتكب هايد جريمة، يصطحب أترسون رجل الشُّرطة الذي يقضي واجبُه بإجراء تحقيقٍ دقيقٍ، وإعلان جميع الحقائق إذا تطلَّب الأمر. وأترسون يساعد في التحقيق، ولكن إلى حدٍّ محدودٍ وحَسْب. بل إنه من الناحية التقنية يعرقل مسار العدالة؛ إذ يُحجم عن ذِكرِ شخصٍ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقاتل، بل يفترض أنه تلقَّى رسالةً منه في أعقاب الجريمة. والواقع أنَّ سلاح الجريمة ينتمي فعلًا إلى جيكل؛ إذ كان أترسون قد أهداه إيَّاه منذ سنواتٍ بعيدة. ويعترف جيكل لأترسون بأن «ما يشغله هو شخصيته، وهي التي أصابها ذلك الأمر الكريه بفضيحة من لونٍ ما». ويشاركه صديقه قلقَه؛ إذ كان يخشى أن «ينجرف اسم الطبيب ذي السمعة الطيِّبة في دوامةِ فضيحةٍ ما». ويظلُّ هذا الهدف قائمًا حتى النهاية. فإذا انتهى كل شيء، ومات هايد، وقُتل جيكل أو اختفى؛ فإن أترسون لا يزال يأمل «أن يصون سمعته على الأقل». بل إنَّ لانيون نفسه، الذي قتلتْه صدمة «الانحلال الخلقي» لجيكل؛ يفرض قيودًا على ما يصرَّح به، مشترطًا

[١٨] نعلم بعد مقتل كارو أنَّ سمعته تسوء فعلًا؛ «إذ عُرفت حكايات عن قسوة الرجل، وهي التي تشهد ببلادة إحساسه ونزوعه للعنف، وحكايات عن حياته الآثمة وغرابة خلطائه، وعن الكراهية التي يبدو أنها أحاطت بحياته كلها.»

[١٩] فيما يتعلق بأشكال قصص الابتزاز ودوافعه؛ انظر: الفصول التمهيدية الممتازة التي كتبها ألكسندر ويلش لكتابه: جورج إليوت والابتزاز (١٩٨٥م).

أنه لو مات أترسون قبله يجب «إحراق الوثيقة» (التي نقرءها آخر الأمر) من دون أن تُقرأ.

ما أقرب ما كِدنا نحرَم من معرفة الحقائق الكاملة، من لانيون أو من جيكل، وكما يقول الأخير في الفقرة الختامية: «إذا كانت قصتي قد نجَتْ حتى الآن من التَّلف؛ فمَرَدُّ ذلك إلى مزيج من الحصافة الفائقة وحسن الطالع الكبير.» ولكن تُرى هل لدينا الحقائق الكاملة؟ ويقول لانيون: «وأمَّا ما ذكره لي [جيكل] في الساعة التالية فلا أستطيع إرغام نفسي على كتابته.» ولا نستطيع أن نعرف إن كان ذلك يتَّفق فعلًا مع اعتراف جيكل الأخير. بل إنَّ هذا نفسُه يشجِّع على الريبة. فما دام أترسون يحاول طول الوقت إخفاء المعلومات أو كتمانها — «هل نجازف ونعلن أن هذه حالة انتحار؟ كلا! لا بُدَّ من الحرص؛ إذ أخشى أننا قد نورِّط سيِّدك ونوقعه في كارثةٍ باقِعة!» — فلماذا ينشُر هاتين الوثيقتين؟ وهل نضمن أنهما مقدَّمتان إلينا دون تغيير أو تنقيح؟ يبدو أن ثمة تضاربًا في المصالح ما بين الشكل والمضمون؛ فالقصة تحاول الكشف الكامل، والمسئولان عن نشرهما يحاولان الإخفاء. ونجِدُ في صُلب النص حالات تكتم، ومراوغة، وكبت. وأما سبب فاعلية حكاية ستيفنسون باعتبارها من قصص الرعب؛ فهو أنها تطرح من الأسئلة أكثر ممَّا تورِده من الإجابات؛ ونتيجة لذلك نراها تحيا وتنمو في مُخيِّلات الذين يقرءونها ويعيدون قراءتها بعد مرور ما يزيد على مائة عامٍ على المرة الأولى التي ابتدع فيها جيكل مزْج عقَّاره الخاص.

مدينة موهومة

أدَّت حكاية ستيفنسون إلى وضع المدينة الحديثة، وخصوصًا لندن، وتثبيتها على خريطة الرعب القوطي. وقد كان لها في هذا الصدد تأثير مباشر في بعض الكُتَّاب مثل أوسكار وايلد، وآرثر كونان دويل، وأرثر ماكين، وربما كانت مسئولة إلى حدٍّ كبيرٍ عن خلقِ صورةِ لندن في أواخر العصر الفكتوري التي رسمتْها مُخيِّلة السينمائيين في عصرنا؛ باعتبارها متاهةً ضبابيةً تضيئها المصابيح الغازية، حيث يتحول مستر هايد بسهولة إلى السفَّاح «جاك ذا ريبر» وحيث يستوقف شرلوك هومز عربةً لمطاردة هذا وذاك. كان القرن قد شهد في بواكيره نماذج «للرعب القوطي في المدن» في عدَّة قِصص، عندما صوَّر البعض مثل تشارلز ديكنز، والروائي الشعبي ج. و. م. رينولدز مشاهد الجريمة والرعب في المناطق المجهورة المنبوذة من لندن في قصص مطوَّلة حافلة بالمتاهات مثل الأحياء التي تدور

فيها.[٢٠] ومع ذلك فإن الصفحات المائة التي كتبها ستيفنسون، وهي التي تستمدُّ بعض ما فيها من صُور هؤلاء الكتاب الذين سبقوه؛ تقدِّم إلينا بشكلٍ أعمق وأوجز مظهر مدينةٍ تحوَّل طابعها بسبب ما يمكن أن نسمِّيه بؤرة التركيز السيكولوجي للقصة. وربما كان ستيفنسون أول كاتبٍ «جغرافي سيكولوجي»؛ إذ أرسى أُسس الطبوغرافيا (رسم الأماكن) الخيالية التي سوف يستكشفها الكُتَّاب من بعده، من أرثر ماكين إلى إيان سنكلير. انظر إلى تصوير ستيفنسون لحيٍّ محدَّد من أحياء لندن، وهو حي سوهو:

> كانت الساعة آنذاك قد قاربت التاسعة صباحًا، فانتشر أول ضباب يهبط في هذا الفصل من العام. وانسدل ستارٌ عظيمٌ بنيُّ اللون على صفحة السماء، ولكن الريح كانت تواصل هبوبها فتَشتَّت تلك الأبخرة المحاصِرة، وهكذا كان مستر أترسون يشهد في أثناء زحْف العربة من شارعٍ إلى شارعٍ عددًا مدهِشًا من درجات الشَّفَق وألوانه .. وتطلَّعتْ عينا المحامي إلى حيِّ سوهو الكئيب من كل فُرْجة لاحت له في هذا الجوِّ، فبدا له بطرُقاته الموحِلة، وقذارة سابِلتِه، ومصابيحه التي لم تُطفأ قَط، أو أعيدت إضاءتها لصدِّ تلك الغزوة الجديدة للظلام، وما تُشِيعه من الأشجان، كأنما كان من أحياء مدينةٍ يراها الحالم في كابوس، كما كانت الأفكار في ذهنه بالغة القتامة …
>
> وعندما توقفت العربة أمام العنوان المطلوب؛ انقشع الضباب قليلًا، وكَشَف له عن شارعٍ قذِرٍ، وخمَّارةٍ، ومطعمٍ فرنسيٍّ حقيرٍ، وحانوتٍ يبيع المجلات والأطعمة الرخيصة، وكثيرٍ من الأطفال في أسمالٍ باليةٍ مكدَّسين في مداخل المساكن، وعددٍ كبيرٍ من النساء من جنسياتٍ مختلفة خارجاتٍ يحملْنَ مفاتيحهن لشُرب قدحٍ في الصباح، ولم يلبث أن عاد الضباب ليُغشي المنطقة بلونٍ بنيٍّ مثل

[٢٠] الحكايات القائمة على «الرعب القوطي في المدن» عند ديكنز؛ مبثوثة في رواياته وخصوصًا أوليفر تويست، والمنزل الكئيب، وفي بعض أجزاء دوريت الصغيرة، وصديقنا المشترك. وأمَّا ج. و. م. رينولدز فقد كتَبَ رواية ألغاز لندن، وواصل قصَّ أحداثها في رواية ألغاز قصر لندن (١٨٤٤–١٨٥٦م) ولاقتا إقبالًا جماهيريًّا شديدًا؛ إذ إنهما تصوِّران مدينة تتَّسم بقَدْر من الغموض والرعب يضارع ما نجِدُه في أي غابة أو جبل في القصص القوطية السابقة.

> أديم الأرض، فعَزَله عن ذلك المكان المنحطِّ. كان ذلك مسكن الرجل المقرَّب من قلب هنري جيكل؛ رجل كُتب له أن يرث ربع مليون جنيه إسترليني.

وتغرينا هذه الفقرة (وصورة مرور العربة) بمقارنتها بالافتتاحية الشهيرة للرواية التي كتَبَها تشارلز ديكنز، وتمثِّل قمة البراعة في معالجة الرعب القوطي في المدينة، ألا وهي المنزل الكئيب (١٨٥٣م)؛ حيث نرى لندن وقد غشيها الضباب تمامًا، وانتشر فيها الطين والوحل. لكنه إذا كان ديكنز يستخدم الضباب للتعليق على التضليل في الإجراءات السياسية والقانونية (باعتبار انعكاسًا لاضطراب الأحوال في بريطانيا آنذاك)؛ فإن ستيفنسون يستخدم جوًّا مماثلًا، ولنا أن نعتبره سيكولوجيًّا بصورةٍ تكاد تكون مباشِرة. وإذا كان ديكنز ينجح في أوصافه في رسْم صورةٍ للندن يمكننا أن نتعرَّف عليها ونحدِّد هُويتها وهي تسبح في هذا البحر من الضباب الذي خلَقَه؛ فإن منظر المدينة عند ستيفنسون يتَّضح فيه طابعها الوهمي. فهو حقًّا حيٌّ مستمَدٌّ من «كابوس»، لا يزيد انتماؤه إلى الواقع على الحلم الذي رآه أترسون من قبل، ورأى فيه متاهةً تضيئها المصابيح ويغشاها سفَّاحون مثل هايد. واستخدام لفظ «ستار» في وصف الضباب ينجح في الإيحاء بمعناه المسرحي، أي إغلاق الستارة على خشبة المسرح، وفي الإيحاء (بسبب معنى الكلمة الآخر؛ أي غطاء النعش) بدلالةٍ ميتافيزيقية، أي أنَّ السماء ورحماتها تنطمس عندما تهبط في مكانٍ جهنميٍّ. والهبوط في الهُوَّة يعني للمحامي أترسون؛ مواجهة مع قلب الظلام الذي نعرف فيما بعد أنه يكمن داخل جيكل نفسِه. والمكان يدعم في نظره الانفصال بين هايد الخبيث المنحطِّ وبين جيكل الناجح المحترم، ولكنه في الحقيقة يقدِّم لنا انعكاسًا رمزيًّا لعلاقة جيكل بهايد. كان حيُّ سوهو منطقةً معزولةً تتَّسم بالفقر والإجرام (وهو ما كان قد ارتبط في تلك الآونة ببقاع شرقي لندن) وسط البقاع الغريبة في لندن حيث الصحة والرخاء. وهكذا فهو يمثِّل موقعًا مناسبًا لمسكن هايد، لكنه أيضًا تعبيرٌ جغرافيٌّ عن وجود هايد داخل جيكل نفسه.

وهذا المدخل «الرمزي» لجغرافية لندن؛ هو الذي يميِّز هذا النَّص الذي لا يحدِّد إلا عددًا بالِغ القلة من الأماكن التي نستطيع التعرف عليها، ويدعم ذلك وصفُ منزل جيكل نفسه:

> إذا انعطفتَ بعد المرور برُكن الشارع الجانبي؛ مررتَ بميدانٍ تحيط به منازلُ جميلةٌ قديمةٌ، أخْنَى عليها الدهر بعد العزِّ في معظمها. وأصبح يقيم فيه

> المستأجِرون شُقَقًا وغُرَفًا، وهم من شتَّى الألوان والأصناف من الناس: من رسَّامي الخرائط إلى المهندسين المعماريين، إلى المحامين المثيرين للرِّيبة، إلى سماسرة الصفقات المغمورة. ولكن أحد هذه المنازل، الثاني بعد طرف الشارع، لا يزال يسكنه أصحابه بأكمله ... [وكان] يَشِي بالثراء العظيم، والعيش الرخيِّ.

وبعبارةٍ أخرى: هذا هو المعادِل المعماري لشخصية جيكل، وعلاقته بغيره من البَشَر. فالمنازل الأخرى «ممزَّقة» مشتَّتة، تعلن بصراحةٍ أنها تتكوَّن من أجزاءٍ كثيرة، ولها أحوالٌ متباينة. وأمَّا منزل جيكل فلا بدَّ أن «يكتسي» (مع التأكيد على فكرة «الظاهر» والتنكُّر) مظهرًا رائعًا من الكمال والاحترام معًا. ولكن منزل جيكل، كما نعرف، له بابه الخلفي الذي يخفيه صاحبه ويتكتَّم وجوده، كما يبدو أن هذا الباب غير متصل بمحل إقامته «الفاخر» الرسمي. والباب الخاص لهايد هو المعادِل المعماري لحالة جيكل؛ أي أنه لا يستطيع الحفاظ على «اكتمال» منزله في الميدان إلا لأنَّ لديه هايد — رجل الباب الخلفي عنده — القادر على أداء أعماله القذرة له. وهكذا يتحول المكان بحيث يخدم أغراضًا رمزية وسيكولوجية أكثر ممَّا يحقق من أغراضٍ جغرافيةٍ محضةٍ، وبحيث يخلق الديكور المسرحي القوطي داخل المدينة، اللازم لتصوير الرعب في أواخر العصر الفكتوري.

عودة مستر هايد

كانت «القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد» تمثِّل نجاحًا ساحقًا لستيفنسون؛ إذ بيعت منها ٤٠٠٠٠ نسخة في ستة أشهر في بريطانيا وحدها. ويبدو أن الجميع قرءوها بما في ذلك رئيس الوزراء والملكة فكتوريا نفسها؛ فقد مسَّت عصبًا عاريًا لدى جمهور أواخر العصور الفكتوري، وسرعان ما دخلت المُخيِّلة الجماعية فقدَّمت مجلة «بنش» محاكاةً ساخرةً لها، وكان الوعَّاظ في الكنائس يُبدون آراءهم القاطعة فيها، كما كَتَب أوسكار وايلد قصةً بعنوان «تدهور الكذب» (١٨٨٩م) يحكي فيها حكاية عن شخصٍ سيئ الحظِّ تصادف أن كان اسمه هايد، وهكذا وَجَد نفسه يقوم بجميع الفِعال المذكورة في الفصل الأول من حكاية ستيفنسون. ويصاب هايد المذكور بالهلع ممَّا يحدث؛ فيفرَّ هاربًا، وأخيرًا يجِدُ ملاذًا له في عيادة الطبيب الذي يعالج أسرة الفتاة، ويقول وايلد: «إن الاسم المكتوب

على اللافتة النحاسية على باب العيادة خَطَف بصره: كان «جيكل»، أو كان ينبغي أن يكون كذلك على الأقل.»[٢١]

كما كانت حكاية ستيفنسون ذات تأثيرٍ بالغٍ في كُتَّاب القَصص الخيالي والخرافي. والرواية التي كتَبَها وايلد نفسه بعنوان: صورة دوريان جراي (١٨٩٠–١٨٩١م) شبيهةٌ بحكاية ستيفنسون من عدَّة وجوه؛ فأحداثها تقع أيضًا في لندن التي يكسوها الضباب، وتتضمن رحلات في الأحياء الفقيرة، وتعالج أيضًا أشكال المظاهر والسمعة، وتتناول فردًا يحيا حياةً مزدوَجة تجمع بين النقاء الظاهر والفساد الباطن. ومثلما يستخدم جيكل هايد القبيحَ المشوَّه قرينًا لجسده؛ يملك دوريان جراي صورةً سحريةً تحمل جميع عواقب حياة الخطيئة. ومثلما رفض ستيفنسون تحديد الجرائم الفظيعة التي ارتكبها جيكل أو هايد؛ حافظ وايلد على غموض خطايا دوريان أيضًا، وإن سَمَح له بأن يحاط بشائعاتٍ «شنيعة» لا يكشف عنها الكشف الكامل أبدًا. ويَصِف وايلد عالمًا مشابهًا من الأسرار، والشائعات والتخمينات:

> انتشرت عنه أقاصيص غريبة .. إذ أُشيع أنه كان يتشاجر مع بعض البحَّارة الأجانب في وكرٍ منحطٍّ في البقاع النائية من هوايتشابل .. وذاعت الأنباء المؤسفة عن حالات غيابه، فإذا عاد إلى الظهور جَعَل الناس يتهامسون ما بينهم في الأركان، أو يمرُّون ساخرين منه، أو ينظرون إليه بعيونٍ فاحصةٍ باردةٍ، كأنما اعتزموا الكشف عن سرِّه.[٢٢]

وكما ذَكَر أحد الأشخاص لدوريان: «كل سيد محترم يهتم بسمعته.» (ص١٤٣)، وهي حال تطلَّبت التوسُّل بالأحابيل الخرافية التي تستخدمها شخصياتُ كلٍّ من: وايلد، وستيفنسون.

ولكن ربما كان المَعْلَمُ الرئيسي الذي تشترك فيه القصتان، وحيث نشعر بتأثير ستيفنسون في قصص الرعب إلى أقصى حدٍّ، هو التركيز على جسد الفرد ومخِّه باعتبارهما

[٢١] أوسكار وايلد، «تدهور الكذب»، في كتابه: نفس الإنسان في ظلِّ الاشتراكية وكتابات نقدية أخرى، من تحرير لندا داولينج (بنجوين، هارموندزورث، ٢٠٠١م)، ص٨٢.

[٢٢] أوسكار وايلد، صورة دوريان جراي، من تحرير روبرت ميجهول (بنجوين، هارموندزورث، ٢٠٠٠م)، ص١٣٦.

مصدر الرعب. وعندما يُمسخ «جيكل» ويتحوَّل إلى هايد الشائه الفظيع (الذي يحمل جسدُه «طابعَ» نوازعِه الشريرة)؛ فإنما يصبح نظيرًا فيما بعد للوصف الذي نقرؤه من صورة دوريان: «من خلال البعث الغريب للحياة الباطنة، كانت ضروب جذام الخطيئة تلتهم الرجل، وتنهشه ببطء! لم يكن تعفُّن جسدٍ في قبرٍ مائيٍّ أشدَّ هولًا ورعبًا.» (ص١٥٠). فإذا كان الجيل الأول من كُتَّاب الروايات القوطية قد اختاروا موقع الرعب الخيالي في غابات وقلاع إيطاليا وإسبانيا؛ فإن التقاليد التي تطورت ونشأت بعد ستيفنسون كانت تَشِي باهتمامٍ فسيولوجيٍّ متميزٍ، وهو ما كان يبيِّن أن جسد الفرد وذهنه يمكنهما بث رعبٍ خاصٍّ بهما، وأن يصبحا وارثين لتركاتٍ كريهةٍ وعودة خصالٍ مَقيتة. والكونت دراكولا الذي يبلغ عمره خمسمائة عام في الرواية التي كتَبَها برام ستوكر يشبه هايد في أنه «نمطٌ إجراميٌّ» وَرِث خصائصه من الماضي البعيد، من جانب معيَّن، كما أنه ذو مظهرٍ متميزٍ بسبب ملامحه المفزِعة، كما أننا نلمح صورته أيضًا من خلال الشهادات المجموعة للمحامين والأطباء الذين يقتفون أثره ويعثرون عليه. والدكتور مورو الذي صوَّره هـ. ج. ولز؛ يُجري تجاربه في الإسراع بعجلة التطور محاولًا استخراج الإنسان من الحيوانات، مثلما أطلق جيكل الحيوان الكامن في رجل من بني البَشَر في جزيرة الدكتور مورو (١٨٩٦م). والقصتان اللتان كتَبَهما آرثر ماكين بعنوان «الرب العظيم بان» (١٨٩٤م)، و«الدجالون الثلاثة» (١٨٩٥م)؛ تتضمنان تجارب غريبة، وشهاداتٍ مشتتةً تسترجع تحولاتٍ جسديةً فظيعةً، وخطايا يتعذر ذكرها، وأفرادًا يصعب وَصْفهم. ولقد كان جيكل — رائد «الطب المتعالي» — قد تنبَّأ بأنَّ «آخرين سوف يتبعوني، وآخرين سوف يتجاوزونني سائرين في الدروب نفسها»، وهو ما تثبُت صحته؛ فالدكتور ريموند، في قصة «الرب العظيم بان» التي كتَبَها ماكين، يُوصف أيضًا بأنه ممارسٌ «الطب المتعالي»، ويستخدم الجراحة في استكشاف مجموعة معيَّنة من الخلايا العصبية في المخِّ للتعرُّف على «تلك الهُوَّة التي من المحال إدراكها، وهي الهُوَّة العميقة التي تفصل بين عالَمين: عالم المادة وعالم الروح»،[٢٣] ويطلِق من هذه التجارب ضروبًا من الفزع البدائي تفوق بمراحل ألوانَ الرعب عند ستيفنسون في صُوَرٍ فظاعتُها بُولِغ في رسمها. وتكرَّر بعد ستيفنسون استكشاف قصص الرعب لهذين العالَمين، وابتداع نظريات خيالية — وإن كانت مقبولة

[٢٣] آرثر ماكين، الرب العظيم بان (١٨٩٥م، ١٩٩٣م)، ص٢٧.

لاكتسائها المظاهرَ العلمية — حول البشاعات التي تختفي في باطن أفراد يبدو لنا أنهم عاديون، سواءٌ كانت كامنة في الجسد أو المخِّ أو الذاكرة. وقد ثَبَت أنَّ هذا الحقل ذو خصبٍ بالغٍ، فمن قصص هـ. ب. لفكرافت إلى قصتي سايكو: «الكابوس في شارع إيلم» و«صمت الحُمْلان»؛ ظلَّت صورٌ متفاوتةٌ لمستر هايد تتواثب في صفحات وشاشات العاملين في مجال قصص الرعب.

نص الرواية

إلى كاثارين دي ماطوس[1]

إنَّا نُخطئ إذ نَقطع ما أَمَر الله به أن يُوصَلْ
ولَسوف نكون دَوَامًا أبناءً لِلْكلأ وللرَّوح المُرسَلْ
إنَّا نبتعد عن الوطن كثيرًا لكنَّ لَدَينا الأعشابْ
إذ تنمو في الأصقاع شمالًا كي تَربطَ بين الأحبابْ

---

[1] كاثارين دي ماطوس: كان اسمُها قبل الزواج «كاثارين ستيفنسون»، وهي ابنة عمِّ المؤلف، ومن أصدقاء الطفولة.

قصة الباب

كان مستر أَتَرْسُون المحامي رجلًا ذا وجهٍ صارِم، لم تُضِئْهُ ابتسامةٌ في يوم من الأيام، وكان حديثه باردًا مقتضَبًا يوحي بالحرج، ومشاعره رجعية، وكان جسده نحيلًا طويلًا يوحي بالوحشة والكآبة، ولكن الرجل كان — على نحوٍ ما — محبوبًا؛ ففي الاجتماعات الودية، عندما يجِدُ النبيذ ملائمًا لذوقه، يسطع من عينه ضياءٌ يقطع بنزعته الإنسانية، وهي نزعةٌ لم تكن تُفصح عن نفسها في حديثه قَط، وإنما كانت تُنطق في الرموز الصامتة في وجهه بعد تناول العَشاء، وكذلك أيضًا — وبصوتٍ أعلى وفي حالاتٍ أكثر — في أفعاله. كان يأخذ نفسه بالشدَّة، فيشرب «الجين» في وحدته حتى يقتل ميله إلى الأنْبِذة الفاخرة، وعلى الرغم من استمتاعه بالمسرح؛ فلم يدخل أيَّ مسرحٍ طيلة عشرين سنة. ولكنه كان يتقبَّل الآخرين ويتحمَّلهم قَطعًا، وإن كان يتساءل أحيانًا، بنبرات تكاد تبلغ الحسد، عن الضغوط الشديدة التي تمارسها النوازع التي تُملي فِعالهم الشائنة، ولكنه كان في الشدائد يميل إلى مساعدتهم لا إلى لومهم، وكان له تعبير طريف معتاد هو «أُدرك خطيئة قابيل،[1] وأَترُك أخي يتَّجه بأسلوبه الخاص إلى إبليس.» وقد كُتِبَ عليه في موقفه هذا أن يكون في حالاتٍ كثيرةٍ آخرَ شخصٍ ذي سمعةٍ طيِّبةٍ، وآخرَ مَن يمارِس تأثيرًا حسنًا في حياة الذين انحدروا للدرك الأسفل، ولم يكن يبدي أيَّ تغيير في مسلكه تجاه أمثالِ هؤلاء قَط، ما داموا يزورونه في مكتبه.

ولا شكَّ أن مستر أَتَرْسُونْ كان يجِدُ هذا «الإنجاز» يسيرًا؛ إذ لم يكن يعبِّر عن مشاعره في أفضل الحالات، بل إنَّ صداقاته نفسَها كانت — فيما يبدو — تقوم على ما يماثل ذلك

[1] خطيئة قابيل: يروي الكتاب المقدس في سِفر التكوين (٤:٩) كيف قتل قابيل (قايين) أخاه هابيل، وعندما سأله الله: أين هابيل؟ قال إنه لا يعرف، وأضاف: «وهل أنا حارسٌ لأخي؟»

من طيبةٍ شاملةٍ. وإذا كان من دلائل التواضع أن يقبل المرءُ دائرةَ أصدقائه جاهزةً من أيدي الأقدار؛ فقد كان ذلك أسلوبَ ذلك المحامي، إذ إن أصدقاءه كانوا إمَّا من أقربائه وإمَّا من بين مَن عَرَفهم أطول مدةٍ ممكِنةٍ، وكانت مشاعره مثل اللَّبْلاب تنمو على مرِّ الزمن على الجدران، من دون أن تدلَّ على ملاءمة مَن يصاحبهم ويلتصق بهِم. وهكذا ولا شكَّ كانت الرابطة التي وحَّدتْ بينه وبين مستر ريتشارد إنفيلد الذي يربطه به نَسَبٌ بعيدٌ، وهو نجم من نجوم المدينة. كان يصعب على الكثير فَهْم صداقة هذين، أو إدراك ما يرى كلٌّ في صاحبه، أو أيُّ موضوعاتٍ مشترَكةٍ يمكنهما أن يعثرا عليها.[٢] وكان الذين يصادفونهما في أثناء نزهاتهما يوم الأحد يقولون إنهما لا يتكلمان، وإن مظهرهما يوحي بالملل الشديد، وأنهما كانا يرحِّبان بظهور أيِّ صديق لهما بإحساسٍ واضحٍ بانفراج الكرب! وعلى الرغم من ذلك فإنَّ هذين الرجلين كانا يُعوِّلان كثيرًا على هذه النزهات، ويعتبرانها الدُّرَّة الرئيسية لكل أسبوع، وكانا يضحِّيان في سبيلها، لا بفرصِ المتع الحقيقية فقط بل كانا يقاومان أيضًا دواعي العمل؛ حتى يستطيعا الاستمتاع بها دون مقاطعة.

وتصادَف في إحدى هذه النزهات أن انعطفا في شارعٍ جانبي في حيٍّ مزدحِمٍ من أحياء لندن، وكان الشارع صغيرًا، ومن الشوارع التي نصِفُها بالهدوء، ولكنه كان يتميز في أيام الأسبوع الأخرى بالتجارة الرائجة، وكان السُّكان — فيما يبدو — من الأغنياء، ويأملون جاهدين أن يزدادوا غنًى، كما كانوا يعرِضون فائض مكاسبهم في بهرجةٍ صارخةٍ، حتى إنَّ واجهات المَحالِّ التجارية كانت تصطفُّ على طول الشارع بهيئةٍ جذَّابة مثل صفوفٍ من البائعات المبتسِمات، وحتى في يوم الأحد؛ اليوم الذي يحجب الشارع فيه أزاهيره الساحرة، ويخلو نسبيًّا من المارَّة، كان الشارع يسطع ويبدو مناقضًا للمنطقة المعتِمة التي تحيط به مثل نارٍ موقَدةٍ في غابة، وكانت عين المارِّ تجتذبها وتسرُّها من فَورِها ألوانُ مغاليق المحالِّ التي طُلِيتْ حديثًا، ومقابضها النحاسية الصفراء المصقولة اللامعة، والنظافة العامة للمكان وأجواؤه المرِحة.

وبعد بابين من أحد الأركان، على يسارك إن اتَّجهتَ شرقًا، يقطع انتظامَ الصفِّ مدخلُ إحدى الساحات، وفي هذا المكان تحديدًا يقف مبنًى ضخمٌ خبيثُ المنظر وقد اقتحم

[٢] «كان يصعب على الكثير فَهْم صداقة هذين، أو إدراك ما يرى كلٌّ في صاحبه، أو أي موضوعات مشتركة يمكنهما أن يعثرا عليها»: هذا أول تساؤلٍ وحَسْب من بين العديد من الأسئلة في قصةٍ حافلةٍ بالتخمينات والعلاقات، ومن ورائها أصعب تساؤل يمكن التصدِّي له؛ وهو ما كان جيكل يراه في هايد.

الشارع بسقفه الهرمي. كان المبنى يتكوَّن من طابقين، ولا تلوح فيه أيُّ نوافذ، بل مجرد بابٍ في الطابق السفلي، وجبهة مصمَتة من جدارٍ حائلِ اللون في الطابق العلوي، وكان كل ملمح من ملامحه ينطق بدلائل الإهمال البشِع الذي طال أمدُه. ولم يكن بالباب مِطرَقة ولا جرس، وكانت به خدوش، ولونه ناصِلٌ. وكان بعض المتشردين يرتمون ويتحركون، في تثاقُلٍ، في كُوَّةِ المدخل، ويُوقدون أعواد الثِّقاب بِحَكِّها في أفاريزه، وبعض الأطفال يتَّخذون دَرَج المبنى متجرًا، كما كان أحد التلاميذ قد شوَّه بمُدْيَته الحِليةَ الزخرفيةَ فيه، ولا يبدو أنَّ أحدًا حاوَل — لفترةٍ تكاد تبلُغ جيلًا كاملًا — أن يطرد هؤلاء الزُّوَّار المتطفلين أو أن يُصلِح ما أفسدوه.

كان مستر إنفيلد والمحامي يسيران على الجانب الآخر من ذلك الشارع الجانبي، ولكنهما عندما واجها مدخل المبنى؛ رَفَع الأول عصاه وأشار بها قائلًا: «هل لاحظتَ هذا الباب يومًا ما؟» وعندما ردَّ صاحبه بالإيجاب؛ أضاف قائلًا: «إنه يرتبط في ذهني بقصةٍ بالغةِ الغرابة.»

وقال مستر أترسون، وقد تغيَّرت نبرته قليلًا: «حقًّا؟ وما كانت؟»

وردَّ مستر إنفيلد قائلًا: «الواقع .. هذا ما حدث: كنتُ عائدًا إلى البيت من مكانٍ ما في آخر الدنيا، في نحو الثالثة من صباح يومِ شتاءٍ حالِك، وكان طريقي يمرُّ بقِسم في المدينة لم يكن فيه ما يُرى — من دون مبالغة — إلا المصابيح. قطعتُ شارعًا من بعد شارع والجميع نائمون، شارعًا من بعد شارع والمصابيح مُضَاءةٌ فيها كأنما هي في موكب، وجميعها خالية مثل الكنيسة، حتى انتابتني أخيرًا الحالةُ التي يُرهِف المرءُ فيها السمعَ ويبدأ التشوقَ إلى رؤية رجل من رجال الشُّرطة. وفجأةً شاهدت شخصين؛ أحدهما رجلٌ ضئيلُ الحجم يدقُّ الأرض بأقدامه في سيره المسرِع في اتجاه الشرق، والآخر فتاة في الثامنة أو العاشرة من عمرها تجري بأقصى سرعة لها في شارعٍ يتقاطع من هذا الشارع. والواقع يا سيدي أنَّ الاثنين تصادما عند التقاطع، وهو أمرٌ طبيعي، ثم جاء الجانب المفزِع للحادث؛ إذ وطئ الرجل بهدوء جسد الطفلة، وتركها تصرخ على الأرض. لن تشعر بشيء عند سماع ما أرويه، ولكن مشاهدتي له كانت جحيمًا؛ فلم يكن الرجل يشبه البَشَر بل يشبه معبودًا هنديًّا لعينًا،[٣] وصِحتُ صيحة الصياد حين يشاهد الثعلب،

---

[٣] معبودًا هنديًّا: الاسم الأصلي هو(Juggemaut)، وهي كلمةٌ إنجليزيةٌ محرَّفةٌ عن الهندية (Jagannath)، وهو صنمٌ يمثِّل الربَّ الهنديَّ فيشنو (Vishnu). وقيل إن عُبَّاده كانوا يُعبِّرون عن إخلاصهم في عبادته

وانطلقتُ أعْدُو خلفه حتى أدركتُه وأطبقتُ على رقبته وعُدتُ به إلى موقع الفتاة الصارخة حيث اجتمع حولها عددٌ كبيرٌ من الناس. كان الرجل يتميز بالهدوء الشديد، ولم يُبدِ أدنى مقاومة، ولكنه نظَرَ إليَّ نظرةً واحدةً، بَلَغ من قبحها أن جعلت العَرَق يَتفَصَّد من جبيني. واتَّضح أن الناس الذين تجمعوا كانوا من أفراد أسرة الفتاة، وسرعان ما ظهر الطبيب[٤] الذي أرسلوها إليه، وقال إنها لم تُصَب بأذًى جسيمٍ بل برعبٍ شديدٍ، ولك أن تفترض أنَّ القصة تنتهي هنا، ولكن حَدَث أمرٌ عجيبٌ؛ إذ كنتُ أضمرت الكراهية للرجل منذ أن رأيتُه، وبذلك أيضًا شعرتْ أسرة الفتاة، وهو أمرٌ طبيعيٌّ ولا شكَّ، ولكن منظر الطبيب هو الذي لَفَت انتباهي؛ كانت له الهيئة المعتادة للصيدلاني، ويصعُب تحديد سنِّه أو لونه، ويتحدث باللهجة الاسكتلندية المتميزة لسكان إدنبره، تشيع فيها اللحون مثل موسيقى القِرَب. لم يكن يختلف عنَّا، فكان كلما نَظَر إلى الرجل الذي قبضتُ عليه رأيتُ التقزُّز والشحوب في وجهه، كأنما كان يرغب في قتله. كنتُ أدرك ما يجول بخاطره مثلما يدرك ما جال بخاطري. ولمَّا كان القتل مستبعَدًا؛ فقد فَعَلنا ما يلي: القتل رعبًا؛ إذ قلنا للرجل إننا نستطيع أن نثير فضيحةً كبرى، بل سوف نثيرها فعلًا حتى تسوء سمعته في لندن من أقصاها لأقصاها، فإذا كان له أصدقاء أو كان يتمتع بأيِّ مصداقية فقد تعهَّدنا بأن يفقد هذا وذاك. وكنا طول الوقت نتوعَّده بأشدِّ النَّكال. ولكننا بذلنا قُصارى جهدنا حتى ننجيه من النساء اللاتي كُنَّ قد توحَّشن فأصبحن كالغِيلان،[٥] ولم أشهد في حياتي حلقةً من وجوهٍ تنضح بمثل هذه الكراهية، وفي وسطها ذلك الراجل الذي يتَّسم ببرودٍ أسودَ ساخر، وإن كنتُ أدرك أنه كان خائفًا هو الآخر، ولكنه كان يُخفي خوفه ويبدو — في الواقع يا سيدي — مثل إبليس نفسه. وعندها قال: «إذا اخترتم استغلال ما حَدَث؛ فلن أستطيع بطبيعة الحال منعكم، وإن كان كل سيدٍ محترمٍ يفضِّل أن يتجنب الفضيحة.» ثم قال: «حدِّدُوا قيمة الغرامة.» وظللنا نضغط عليه حتى وصلنا إلى مائة جنيه لأسرة

بأن يُلقوا بأنفسهم أمام العربة التي تحمل هذا الصنم وتسير به في الطرقات، في موكب حافل، وربما سُحقوا تحت العجلات. وإنفيلد يقارن اللقاء الوحشي الذي شاهده بهذه الطقوس القديمة.

[٤] الطبيب: يشير إليه إنفيلد بلفظٍ عاميٍّ يفيد الاحتقار، وهو (Sawbones)؛ أي الجرَّاح الذي يقطع العظام بالمنشار.

[٥] الغيلان: في الأصل (harpies)، وكانت هذه في الأساطير الكلاسيكية وحوشًا لها أجنحة (ووجوه بشرية أنثوية) عادةً ما تختصُّ بالقِصاص من الخاطئين.

الفتاة، وكان من الواضح أنه يريد أن يتملَّص من الدفع، ولكنه أدرك من موقفنا أننا مصمِّمون على إيذائه فأذعن أخيرًا. كانت الخطوة التالية الحصول على النقود، وأين تظنُّ أنه اقتادنا؟ لقد مضى بنا إلى ذلك المبنى الذي وصفتُ بابه، وأخرج من جيبه مفتاحًا ففَتَحه، وسرعان ما عاد وفي يده عشرة جنيهاتٍ ذهبيةٍ، وشيكٌ مصرفيٌّ على بنك كوتس،[٦] يُصرف لحامِله، وعليه توقيعٌ باسمٍ لشخصٍ لا أستطيع أن أذكره، وإن كان يمثِّل رُكنًا من أركان قصتي، ولكنه كان اسمًا أقل ما يُقال عنه إنه كان شهيرًا ويتردد كثيرًا في الصحف. كان المبلغ باهظًا، ولكن التوقيع كان يضمن مبلغًا أكبر، لو لم يكن مُزوَّرًا. وسمحتُ لنفسي أن أبيِّن لذلك «السيد المحترم» أنَّ ما فعله كله يثير الشك،[٧] فالإنسان لا يدخل — في الحياة التي نعيشها — من باب قَبْوٍ في الرابعة صباحًا ويخرج منه حاملًا شيكًا مصرفيًّا عليه توقيع رجلٍ آخر بمبلغ يقترب من مائة جنيه. ولكن الرجل بدا مُطمئِنًّا، وقال في استهزاء: «اطمئنوا؛ فسوف أبقى معكم حتى تفتح البنوك أبوابها، وأصرف الشيك بنفسي.» وهكذا انطلقنا جميعًا — الطبيب، ووالد الفتاة، وصديقي، وأنا — فقضينا بقية الليلة في منزلي، وفي الصباح خرجنا بعد الإفطار إلى البنك جميعًا. وقدَّمت الشيك بنفسي، وقلتُ للصرَّاف: إنني أعتقد جازمًا أنَّ فيه تزويرًا. ولكن ظنِّي خاب؛ كان الشيك المصرفي صحيحًا.»

وقال المستر أترسون: «غير معقول!»

وقال مستر إنفليد: «أرى أنك تشاركني إحساسي، وأوافقك على أنها قصة رديئة؛ فإن الشخص الذي أتحدث عنه لم يكن أحدٌ يحبُّ التعامل معه؛ رجلٌ لعينٌ حقًّا. وأما الاسم الموقَّع على الشيك المصرفي؛ فكان مثال الخُلق القويم، ذائع الصيت أيضًا، وكان من الذين يعلمون ما يسمُّونه بالخير والإحسان.[٨] قلتُ في نفسي: لا بدَّ أنه ابتزاز، ما دام لدينا رجلٌ شريفٌ يتكبَّد أموالًا طائلةً في مقابل التكتُّم على بعض زلات شبابه.» ولذلك أطلقتُ على

[٦] بنك كوتس في الأصل (Coutts)، وهو اسمٌ لمؤسسةٍ مصرفيةٍ عريقةٍ أنشئت في عام ١٦٧٢م.

[٧] يثير الشك: في الأصل (apocryphal)، والصفة كانت تطلَق على أسفار الكتاب المقدَّس المشكوكِ في صحتها.

[٨] ما يسمونه بالخير والإحسان: ندرك بعد قراءة القصة أن التحرُّز في تعبير إنفليد — أي قوله: «ما يسمُّونه.» بدلًا من وصف العمل بالخير والإحسان فعلًا — قد يكون له مغزاه، ما دام يُنشئ هوةً ما بين المظهر الذي يراه الناس والحقيقة الخاصة بصاحبها.

هذا المنزل اسم بيت الابتزاز بسبب ذلك. ولكن ذلك نفسه — بالمناسبة — أبعد ما يكون عن تفسير كل ما جرى. وبعد ذلك خَلَد إنفليد إلى الصمت والتفكير فيما قاله.

واستدعاه من تيار تفكيره مستر أترسون بأن سأله بغتة: «وأنت لا تعلم إن كان صاحب التوقيع على الشيك يقيم في ذلك البيت؟»

وردَّ مستر إنفليد قائلًا: «هل ترى ذلك محتمَلًا؟ لكنني تصادف أن لاحظتُ عنوان مسكنه، فهو يقيم في ميدانٍ ما.»

وقال مستر «أترسون»: «ولم تسأل قَط عن الـ... البيت الذي وصفتَ بابه؟»

وأجاب إنفيلد قائلًا: «كلَّا! أحسستُ بالحرج يا سيدي. فأنا أعارض طرح الأسئلة معارضةً شديدةً، فذلك يشبه يوم الحساب إلى حدٍّ بعيد؛ إذ إن إلقاء سؤالٍ يشبه دحرجة حَجرٍ من الأحجار برِجْلك وأنت جالسٌ في هدوء على قمَّة تلٍّ، فإذا به قد جَرَف أحجارًا أخرى، وسرعان ما يسقط أحدها على رأس رجلٍ عجوزٍ لطيفٍ (وهو آخر ما جال بخاطرك) وهو يجلس مطمئنًا في حديقة منزله الخلفية؛ الأمر الذي يُرغم الأسرة على تغيير اسمها. لا يا سيدي! لقد وضعتُ لنفسي قاعدةً ثابتةً، وهي كلما بدتْ في الأمر ورطةٌ ماليةٌ[٩] أقللتُ من طرح الأسئلة.»

وقال المحامي: «وهي لا شك قاعدةٌ ممتازة.»

واستأنف مستر إنفليد حديثه قائلًا: «لكنني قمتُ بنفسي بدراسة ذلك المكان، لا يكاد يبدو منزلًا بالمعنى المفهوم؛ فليس له باب آخر، ولا يدخل أو يخرج منه أحدٌ إلا الرجل الذي ذكرتُه في تلك المغامرة، وذلك على فترات متباعدة. وللمبنى ثلاث نوافذ تطلُّ على الساحة في الطابق الأول، ولا توجد نوافذ تحتها، وهي دائمًا مغلَقة، لكنها نظيفة. وللمبنى مدخنة يخرج منها الدخان عادة، وهكذا لا بدَّ أنَّ بالمبنى مَن يقيم فيه. ومع هذا فليس ذلك مقطوعًا به؛ لأن المباني من حوله متلاصقةٌ إلى الحدِّ الذي يعسُر فيه البتُّ في موقع انتهاء أحدها وابتداء آخر.»

وعاد الرجلان إلى السير في صمت بُرهةً من الوقت قبل أن يقول مستر أترسون: «قاعدة ممتازة يا إنفيلد.»

وردَّ إنفليد قائلًا: «نعم؛ أظنُّها كذلك.»

[٩] ورطة مالية في الأصل (in queer street)، وهو مصطلح خاصٌّ باللغة الإنجليزية؛ هذا معناه.

فواصل المحامي حديثه قائلًا: «ومع ذلك فإنني أريد أن أسأل سؤالًا واحدًا: ما اسم الرجل الذي داس الطفل؟»

وردَّ مستر إنفليد قائلًا: «الواقع أني لا أرى بأسًا من الإجابة: كان رجلًا يُدعى هايد.»

وغمغم مستر أترسون، ثم قال: «وكيف بدا لعينيك؟»

«ليس من اليسير وصْفُه. منظره فيه خللٌ، فيه ما ينفِّرك منه، بل ويجعلك حقًّا تكرهه. لم أرَ في حياتي رجلًا أبغضه إلى هذا الحدِّ، وإن لم أكن أدري لذلك سببًا. لا بدَّ أنَّ به تشوُّهًا في مكانٍ ما؛ إذ تحسُّ فيه بالتشوُّه الشديد، على الرغم من استحالة إيضاح مصدر إحساسي. منظره شاذٌّ وإن لم أكن أستطيع حقًّا تحديد موقع الشذوذ. لا يا سيدي! لن أجازف! لا أستطيع وصْفَه. ولكن ذلك لا يرجع إلى ضعف ذاكرتي؛ فإنني أستطيع أن أراه ماثلًا في هذه اللحظة.»

وعاد مستر أترسون مرةً أخرى إلى السير في صمتٍ وقد أثقَلَه بوضوحٍ تقليب الأمر على وجوهه، ثم قال أخيرًا: «أنت واثقٌ أنه استعمل مفتاحًا؟»

وأخرجت المفاجأةُ إنفليد عن طوره؛ فَصَاحَ: «يا سيدي العزيز ...»

فقال أترسون: «نعم .. نعم؛ أعرف! لا بدَّ أنَّ الأمر يبدو غريبًا لك. والواقع أنني لم أسأل عن اسم الطرف الآخر؛ لأنني أعرفه بالفعل. فكما ترى يا ريتشارد؛ لقد مسَّت قصتك قلبي، فإن لم تكن قد راعيتَ الدِّقة فيما سألتُك عنه؛ فالأفضل تصحيح ما قلتَ.»

وقال الآخر بنبرةٍ لم تَخلُ من الامتعاض: «ليتك نبَّهتني، ولكنني راعيتُ الدِّقة إلى أقصى حدٍّ، إذا استعملتُ تعبيرك. كان مع صاحبنا مفتاح، بل لا يزال معه. وقد رأيتُه يستخدمه منذ أقلَّ من أسبوع.»

وندَّت عن مستر أترسون آهةٌ عميقةٌ، ولكنه لم ينطق بكلمة، فاستأنف الشابُّ حديثه قائلًا: «لقد تلقَّيت الآن درسًا في فائدة الكتمان! وأشعر بالخجل من طول لساني! فَلْنتعاهد على ألَّا نشير إلى هذا الموضوع مرةً أخرى.»

وقال المحامي: «من كل قلبي. ولْنتصافح على حِفْظ هذا العهد يا ريتشارد!»

البحث عن مستر هايد

عاد مستر أترسون ذلك المساء إلى منزله الذي يقيم فيه وحده، فهو أعزب، وقد غلبه الاكتئاب فجلس إلى مائدة العشاء دون شهية. كان من عادته يوم الأحد أن يجلس بعد انتهاء عشائه بجوار المدفأة، وقد فتح مجلدًا من المجلدات الدينية الجافة على مكتبه الصغير ليقرأه، حتى تدق ساعة الكنيسة المجاورة الثانية عشرة فيأوي إلى الفراش في هدوءٍ ورضًا. وأمَّا في تلك الليلة؛ فما إنْ أزال الخادمُ مفرش المائدة حتى أَخَذ شمعة ودخل غرفة عمله، ففتح خزانة فيها، وأخرج من أشدِّ أقسامها سِرِّيةً وثيقةً كُتب على غِلافها «وصية الدكتور جيكل»، وجلس مقطب الجبين ليدرس مضمونها. كانت الوصية مكتوبةً بخطِّ صاحبها؛ لأن مستر أترسون، على الرغم من تعهُّده بها بعد كتابتها، كان قد رَفَض تقديم أيِّ مساعدة في إعدادها. وكانت تنصُّ على أنه في حالة وفاة هنري جيكل، الحاصل على الدكتوراه في الطب، وفي القانون المدني، ودكتوراه في القانون العام، وزميل الجمعية الملكية، وما إلى ذلك؛[1] فإن جميع ممتلكاته تئُول إلى «صديقه، وولي نعمته» إدوارد هايد، ولكنها كانت تنصُّ أيضًا على أنَّه في حالة «اختفاء الدكتور جيكل أو غيابه بلا تفسير، أي فترة تزيد على ثلاثة أشهر وفق التقويم الجاري»؛ فإن إدوارد هايد المذكور يحلُّ محلَّ الدكتور جيكل دونما إبطاء، من دون تحمُّل أيِّ تبِعات أو التزامات، باستثناء دَفْع عددٍ محدودٍ من المبالغ الضئيلة للعاملين في منزل الدكتور المذكور. لطالما كانت هذه الوثيقة بمثابة قذًى في عين المحامي؛ كان يشعر باستيائه منها باعتباره محاميًا، وبصفته رجلًا

[1] المؤهلات العلمية العالية التي يحملها الدكتور جيكل ترمي إلى تبيان أنَّه عالمٌ بارزٌ في مهنته، ويتمتع بالاحترام.

يحبُّ جوانب الحياة المعتادة و«العاقلة»، وكانت شطحات الخيال تمثِّل له ضربًا من «قلة الحياء»؛ ومن ثَمَّ فقد كان جهله بالمستر هايد هو الذي ضخَّم من استيائه. وأمَّا الآن، فقد أصبح السبب هو النقيض فجأةً؛ أي علمه بمَن يكون. كان الأمر يسوءه بما فيه الكفاية عندما لم يكن الاسم سوى اسمٍ وحَسْب، ولا يستطيع أن يعرف المزيد عنه؛ ولكن السوء تفاقَمَ بعد أن أصبح يكتسي صفاتٍ بغيضةً. وهكذا وجَدَ أن سحائب الضباب غيرَ الملموسة والمتحركة التي حارت فيها عيناه زمنًا طويلًا؛ تُسفر فجأةً وبوضوح عن صورةِ شيطانٍ لا شكَّ فيه.

وقال أترسون: «كنتُ أظن ذلك من قبيل الجنون.» وهو يُعيد الورقة المَقيتة إلى الخزانة، ثم قال: «لكنني أخشى أن تكون قد أصبحت الآن من قبيل العار.»

قال ذلك وأطفأ الشمعة، وارتدى مِعطفًا سميكًا، وانطلق إلى ميدان كافنديش،[٢] معقل الطب، حيث يقيم صديقه الدكتور لانيون، وحيث يستقبل في عيادته فيه مرضاه الذين يتزاحمون على ارتيادها. كان يقول في نفسه: «إن كان أحدٌ يعرف السرَّ فهو لانيون.»

واستقبله القهرمان الوقور الذي كان يعرفه ورحَّب به، ولم يواجه تأخيرًا من أيِّ لون بل أُدخل مباشرة من الباب إلى غرفة المائدة، حيث كان الدكتور لانيون يجلس وحده وأمامه قدح من النبيذ. وكان هذا الرجل دمِث الخُلق، موفور الصحة، أنيق الملبس، أحمر الوجه، وقد وخط الشيب شعره الكثَّ قبل الأوان، وكان صاخبًا في مسلكه حازمًا فيما يفعل، فما إنْ شاهَدَ مستر أترسون حتى هبَّ واقفًا من مقعده ورحَّب به بكلتا يديه. كانت المبالغة في دفء الترحيب، وفق ما اعتاده الرجل، تَشِي بحركاتٍ مسرحيةٍ، ولكنها كانت تستند إلى صدق المشاعر؛ فلقد كان هذان من الأصدقاء القدامى، إذ ترافقا في المدرسة وفي الجامعة، وكان كلاهما يُكِنُّ الاحترام الشديد لنفسه ولصاحبه، ويتميزان بشيءٍ لا يتبع ذلك في جميع الأحوال؛ إذ كانا يستمتعان بصحبة بعضهما بعضًا إلى أقصى حدٍّ.

[٢] ميدان كافنديش هذا من الأماكن القليلة التي يحدِّدها المؤلف بدقَّة في قصته؛ بحيث نستطيع التعرف عليها. وقد أُقيم هذا الميدان أول الأمر عام ١٧١٧م في موقعٍ ملاصقٍ لميدان أكسفورد من الجانب الشمالي، أي في الجنوب الشرقي من شارع «مارلبون». وقد أصبح فعلًا «قلعةً للطب» منذ منتصف القرن التاسع عشر، ما دام مشاهير الأطباء يقيمون فيه. وقد ارتبط اسمه بعيادات الأطباء الخصوصية التي يرتادها الأغنياء وبجراحات التجميل، إلى جانب شارع ويجمور، وشارع ويمبول، وشارع هارلي.

وبعد أن تجاذبا أطراف الحديث، انتهى المحامي إلى الموضوع الذي يشغل باله إلى حدِّ التنغيص عليه.

قال المحامي: «أتصوَّر يا لانيون أننا — أنا وأنت — أقدم صديقين لهنري جيكل؟»

وقهقه الدكتور لانيون قائلًا: «ليت الأصدقاء كانوا أصغر سنًّا! ولكنني أتصور أننا تقدَّمنا في السنِّ! وما قيمة ذلك؟ لا أراه هذه الأيام إلا لمامًا.»

وقال أترسون: «حقًّا؟ كنت أتصوَّر أنكما ترتبطان بمصالح مشتركة.»

فأجاب لانيون قائلًا: «كنا كذلك فعلًا، لكنني بدأتُ أنفر من غرابة أطوار هنري جيكل من مدة طويلة زادت على عشر سنوات، أي منذ أن بدأ ينحرف عن الصواب، أقصد الانحراف الفكري، وعلى الرغم من أنني ما زلت أهتمُّ بأمره حفاظًا على حقِّ «العِشرة» القديمة، كما يقولون، فلم أعُدْ أراه، ولا أراه الآن، إلا لمامًا.» واحتقن وجه الدكتور فجأةً فأصبح أرجواني اللون وهو يُضيف قائلًا: «من شأن تلك التُّرَّهات العلمية أن تبذر الجفاء بين أقرب خليلين.»[٣]

ورأى مستر أترسون راحةً في هذا الانفلات المحدود لأعصاب لانيون؛ إذ قال في نفسه: «إذن لقد اختلف الرجلان حول قضيةٍ علميةٍ وحَسْب.» ولَمَّا لم يكن ذا ميولٍ علميةٍ (إلا فيما يتعلق بعقود نقل الملكية)؛ أضاف إلى ذلك الخاطر: «ليس في الأمر ما يزيد سوءًا إذن!» وأتاح لصديقه ثواني معدودة حتى يستعيد رَباطة جأْشه قبل أن يطرح السؤال الذي أتى لطرحه: «هل صادفتَ يومًا رجلًا يرعاه الدكتور، ويُدعَى هايد؟»

وقال لانيون: «هايد؟ كلَّا! لم أسمع به قَط! أعني منذ صداقتي القديمة معه.»

وكان ذلك مبلغ ما حمله المحامي معه من معلومات حين عاد إلى فِراشه الضخم، حيث جعل يتقلَّب فيه أرِقًا في الظلام حتى انقضى الهزيع الثاني من الليل. لم تأتِه الليلةُ براحةٍ تُذكَر لذهنه المكدود؛ إذ ظلَّ يكُدُّ في الظلمة وحصار الأسئلة حوله.

---

[٣] «أقرب خليلين»: في الأصل «دامون وبيثياس» (Damon and Pythias)، والأخير — الذي يكتب اسمه أحيانًا (Pythias) — كان الطاغيةُ ديونيسيوس قد حكم عليه بالإعدام في القرن الرابع قبل الميلاد، ولكنه سَمَح لصديقه دامون أن يحلَّ محلَّه مؤقتًا ريثما ينتهي الأول من بعض الأشغال المهمَّة، وكان الاتفاق يقضي بأنه إن لم يعُدْ فسوف يُقتل صديقه بدلًا منه. ولكن بيثياس عاد في موعده، فتعجَّب الطاغية وبَهَره الإخلاص المتفاني إلى الحدِّ الذي جَعَله يعدِل عن رأيه، ويُلغي حكم الإعدام.

ودقَّت نواقيس الكنيسة مُعلِنة السادسة صباحًا، وكان يجِدُ راحةً في قُرب مسكنه إلى هذا الحدِّ من تلك الكنيسة، لكنه كان لا يزال يحاول حلَّ المشكلة. لم تكن المشكلة من قبل قد أثارته إلا فكريًّا، لكنها الآن بدأتْ تشغل خياله، أو بالأحرى تستعبد خياله. وبينما كان راقدًا يتقلَّب في الظلام الدامِس في أثناء الليل، وفي الغرفة التي حَجَبتْ فيها الستائر أنوار الصبح؛ استعرض ذهنه الحكايةَ التي رواها مستر إنفيلد في شريطٍ من الصور المضيئة. كان يرى في خياله حقلَ المصابيح الشاسع للمدينة في أثناء الليل، ثم صورةَ رجلٍ يسير مُسرِعًا، وطفلةً تهرع خارجةً من عيادة الطبيب. ثم يراهما وقد اصطدما، والرجل الذي يشبه المعبود الهندي الهائل وهو يدوس عليها ويمضي متجاهِلًا صرخاتها. أو كان يُبصر غرفةً في منزل أسرةٍ ثريةٍ ينام فيها صديقه، ويحلم مبتسمًا في أحلامه، ثم يرى باب الغرفة يُفتح، وستائر الفراش تنفرج، ويسمع مَن يستدعي صديقه، ويا لَلْعَجَب! إنَّ إلى جوار صديقه رجلًا مُنِح سلطانًا عليه، ولا بدَّ لصديقه — حتى في تلك الساعة التي نام فيها الجميع — أن ينهض وينفِّذ ما يأمره الزائر به! كانت صورة الرجل في هاتين المرحلتين تشغل ذهن المحامي طول الليل. وحتى عندما كان النُّعاس يغلبه؛ كان يرى صورته تسترِقُ الخُطَى بين المنازل النائمة، أو تمضي بسرعةٍ متزايدة — بل تزداد باطِّرادٍ إلى حدٍّ يُصيب بالدوار — وسط متاهاتِ[٤] المدينة المُضاءة بالمصابيح، وكان ذلك الرجل يصطدم في رُكن كل شارع بطفلةٍ ويدوسها تاركًا إيَّاها تصرخ. ولم يكن لصورة الرجل وجه يستطيع التعرف عليه به، بل حتى في أحلامه كان الوجه غائبًا أو كان مثيرًا للحيرة؛ إذ يذوب أمام عينيه، وهكذا نشأتْ وتنامتْ بسرعة في ذهن المحامي رغبةٌ شديدةٌ، بل تكاد تكون جائحة، لمشاهدة ملامح وجهِ مستر هايد الحقيقي. وقال في نفسه: إنه لو استطاع أن يراه رأيَ العين مرةً واحدةً؛ فربما خفَّتْ وطْأة اللغز، وربما انقشع ضبابه تمامًا،[٥] على نحو ما يحدث عند الفحص الدقيق للأمور الغامضة؛ إذ ربما وجَدَ سببًا يبرِّر

---

[٤] متاهات: كانت هذه الاستعارة التقليدية المستخدَمة في الإشارة إلى المدينة، خصوصًا مناطقها القديمة والفقيرة في ذلك الوقت. وهذه الصورة «الحُلمية» تستبِق الزيارة التي يقوم بها أترسون لاحقًا إلى «حي سوهو الفظيع» بحثًا عن هايد، وهو الذي يُشبِّهه «بأحد أحياء مدينةٍ ما في كابوس».

[٥] «إنه لو استطاع أن يراه رأيَ العين مرةً واحدةً؛ فربما خفَّتْ وطْأة اللغز، وربما انقشع ضبابه تمامًا.» هذه الرغبة في مشاهدة هايد ذات مغزًى خاصٌّ، فقدناه اليوم نتيجةَ مراجعة ستيفنسون للقصة وتعديله لتصوُّره الأوَّليِّ حتى اتخذت الشكل النهائي. ففي أحد المخطوطات السابقة للحكاية نجِدُه أشدَّ صراحةً

الإيثار الغريب الذي يُبديه صديقه له، أو حتى وقوعه في أَسْرِ ذلك الرجل (ولك أن تصِفَ تلك الرابطة بأيِّ صفة تريدها) بل حتى الشروط المفزِعة التي تضمنتها الوصية. قُل إنَّه، على الأقل، وجهٌ جديرٌ بالمشاهدة؛ فهو وجهُ رجلٍ لا رحمة في أحشائه، وجهٌ لم يَكَدْ يراه صديقه إنفيلد — وهو ذو العقل الذي لا يخضع للأهواء — حتى ثارت في نفسه كراهيةٌ مقيمةٌ له.

وبدأ مستر أترسون منذ ذلك الحين يحافظ على ارتياد موقع ذلك الباب في الشارع الجانبي الحافل بالمحالِّ التجارية؛ كان يوافيه صباحًا قبل مواعيد العمل، وظُهرًا عند اشتداد النشاط التجاري والحرص على كل دقيقة، وليلًا عندما يطلُّ وجهُ القمر من خلال الضباب على المدينة؛ أي أن المحامي كان يُرَى في موقعه المختار مهما يكن الضوء في الشارع، وفي جميع ساعات العزلة والاجتماع.

وقال في نفسه: «إن كانت لعبة «استغمَّاية» فَلْيختبئ مستر هايد، وسوف آتي به!»

وأخيرًا نال جزاء مثابرته. كان الجوُّ صحوًا تلك الليلة، والبرد في الهواء يُنذر بالصقيع، والشوارع نظيفة مثل أرضية قاعة مَرقَص، وكانت المصابيح التي لا تهزُّها الريح تنسج على الأرض أشكالًا منتظمةً من الأضواء والظلال. وبحلول الساعة العاشرة مساءً، بعد إغلاق الحوانيت، بدا الشارع الجانبي خاليًا يشيع فيه صمتٌ عميقٌ على الرغم من الهدير الخفيض لمدينة لندن من حوله. كانت أخفتُ الأصوات تُسمع من مسافاتٍ طويلةٍ، كما كانت تُسمع بوضوحٍ الأصوات الخارجة من المنازل على جانبي الطريق، وكانت أصداء خُطَى أيِّ سائرٍ تسبقه بوقتٍ طويلٍ. ولم يكن مستر أترسون قد قضى في موقعه غير دقائقَ معدودةٍ حين سَمِع أصوات خُطًى خفيفةٍ غريبةٍ تقترب منه. كان قد اعتاد منذ مدةٍ طويلةٍ، في أثناء «دورياته» الليلة، تمييزَ التأثير الخاص الناجم فجأةً عن وَقْع خطَى شخصٍ مفردٍ، وهو لا يزال بعيدًا، من بين الصخب والجَلَبَة الشاسعة للمدينة. ولكن

بشأن الصورة التي اتخذتْها شكوك أترسون؛ إذ كان قد طَرَح في البداية افتراضين؛ الأول: هو أن هايد يبتزُّ جيكل، والآخر: أن هايد ابنٌ غير شرعي لجيكل. ويصلح الافتراضان لتفسير مخاوفه من وجود «عارٍ» خفيٍّ في حياة جيكل. ونحن نجِدُ فيما يسمَّى «نسخة المطبعة» أن أترسون يقول بعد أن شاهَدَ وجه هايد: «من المُحال أن يكون هذا وجه ابنه، بل من المحال قَطعًا.» (هيرش وفيدر، ١٩٨٦م، ص٢٣). وهكذا فإن أترسون كان يريد البتَّ فيما إذا كانت في ملامح وجه هايد، «ذلك اليافع» الذي يقول عميله في وصيته إنه وريثه الوحيد؛ ما يربطه بوجوه أفراد الأسرة.

انتباهه لم يسبق أن تركَّز بهذه الحدَّة وهذا «القَطع» من قبل، فإذا به ينزوي في رُكن من أركان الفِناء وقد أحسَّ إحساسًا قويًّا وحَدْسيًّا بأن النجاح وَشِيكٌ.

وازداد اقتراب الخطوات بسرعة، ثم عَلَتْ أصواتها فجأةً عندما تجاوَز صاحبها رُكن الشارع. وجعل المحامي ينظر من موقعه لدى المدخل، وسرعان ما شاهَد نوع الرجل الذي قرَّر أن يواجهه. كان الرجل ضئيل الجِرم، يرتدي ثيابًا غير أنيقة، وكان منظره حتى على هذا البعد؛ لا يبعث الارتياح على الإطلاق فيمَن يشاهده. ولكن الرجل اتَّجه مباشرةً إلى الباب، عابرًا الطريق اختصارًا للوقت، وأخرج من جيبه عندما اقترب مفتاحًا كشأن كلِّ مَن يقترب من بيته.

وخطا مستر أترسون خطوةً خارجًا من رُكنه، ومسَّ بيده كتف الرجل في أثناء مروره، وقال: «مستر هايد، على ما أظن؟»

وأجفل مستر هايد بشهقةٍ كحَسِيس الخائف، وإن زال خوفه من فَوره، وردَّ بثباتٍ واطمئنانٍ، حتى دون أن يتطلَّع إلى وجه المحامي، قائلًا: «هذا اسمي، ماذا تريد؟»

وقال المحامي: «أرى أنك تنتوي الدخول؛ أنا من أصدقاء الدكتور جيكل القدامى، واسمي أترسون، وأُقيمُ في شارع جونت،[٦] ولا بدَّ أنك سمعتَ اسمي، ولمَّا أسعدني الحظُّ بلُقياك مصادفةً؛ كنت أرجو أن تسمح لي بالدخول.»

---

[٦] «شارع جونت» (Gaunt): لم يكن في لندن في ذلك الوقت شارع بهذا الاسم، وهو مجرد تعبيرٍ رمزيٍّ عن طبيعة شخصية أترسون الذي يأخذ نفسه بالشدَّة؛ فالكلمة تعني — وفق ما يقوله معجم أكسفورد الكبير — «المتجهِّم، والمُوحش»، إلى جانب دلالتها الأخرى: «نحيفٌ بصورةٍ غير معتادة، كأنما من الجوع»، وغير ذلك. وهذا المدخل «الرمزي» لجغرافية لندن من سماتِ تقنية ستيفنسون في روايةٍ يَنْدُر التعرُّف على أيِّ موقعٍ حقيقي فيها. ويقول سيفنسون في «نسخة المطبعة» للنصِّ إنَّ أترسون «انطلق باتجاه الشرق» من منزله إلى منزل جيكل (هيرش وفيدر، ١٩٨٦م، ص٢٠). ولكن فائدة هذا معدومةٌ إلا إذا عَرَفنا المكان الذي يعيش فيه جيكل. والواقع أنَّ منطقة جيكل موصوفةٌ بعنايةٍ أكبر كثيرًا، ولكن من الصعب أيضًا تحديد موقعها الجغرافي على وجه الدقَّة، فمن الواضح أنها ليست في حيٍّ سوهو، وهو الحي الذي يقع فيه منزل هايد، بغرض ممارسة انحلاله الخُلقي فيه، ومن ثَمَّ فإن هذا يستبعد ميدان سوهو وميدان جولدن؛ إذ كان كل منهما قد أخنى عليه الدهر بحلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر، فأصبح سُكَّانه من التجَّار والحرفيين والمهنيين المذكورين. والمنازل توصف بأنها عتيقة، ولكن هذه الصفة كان الناس يطلقونها في (أواخر) العصر الفكتوري على كل ما بُنِيَ قبل أوائل القرن الثامن عشر، وكانوا يعتبرون أنَّ «الحداثة» قد بدأت في نحو عام ١٧٥٠م. وأقول من جديد إنَّ أيَّ محاولةٍ لتحديد الموقع الجغرافي الدقيق؛ لا نَفْع منها، ومنزل جيكل مثال آخر من أمثلة المدخل الرمزي عند ستيفنسون (انظر مناقشة هذه الفقرة في المقدمة).

وأجاب مستر «هايد»: «لن تجِدَ الدكتور جيكل؛ فليس في بيته.» ودسَّ المفتاح في القفل، ثم قال فجأةً — ولكن دون أن يرفع بصره: «كيف عَرَفتَني؟»

فقال مستر أترسون: «هل تتكرم أنت بإسداء معروفٍ لي؟»

وأجاب الآخر: «بكلِّ سرور، وما ذاك؟»

فقال المحامي: «هل تَدَعني أُبصر وجهك؟»

وبدا أنَّ مستر هايد متردد، وإذا به — كأنما فاجأتْه فكرةٌ مفاجئةٌ — يواجه المحامي مواجهةَ مَن يتحدَّاه، وظلَّ الاثنان يحدِّقان في بعضهما بعضًا عدَّة ثوانٍ، قبل أن يقول أترسون: «أستطيع الآن أن أتعرَّف عليك من جديد؛ فقد يكون ذلك مفيدًا.»

وردَّ مستر هايد قائلًا: «فِعْلًا؛ مقابلتنا مفيدة. وأقول بالمناسبة: إنَّ عليك أن تعرف عنواني.» وأشار إلى رقم منزلٍ معيَّنٍ في شارعٍ في حيِّ سوهو.

وقال مستر أترسون في نفسه: «يا الله! تُرى هل خطَرَ له أيضًا أَمْر الوصية؟» ولكنْ لم يُفصح عن مشاعره، وغَمْغَم غمغمةَ امتنانٍ لحصوله على العنوان.

وقال الآخر: «قل لي إذن؛ كيف عَرَفتَني؟»

وجاءته الإجابة: «بالوصف.»

– «وصفُ مَن؟»

وقال مستر أترسون: «لدينا أصدقاء مشترَكون.»

وردَّد العبارة مستر هايد بصوتٍ شبهِ مبحوحٍ: «أصدقاء مُشترَكون؟ مَن هم؟!»

قال المحامي: «الدكتور جيكل مَثَلًا.»

وهَتَف مستر هايد صائحًا بنبرات الغضب: «لم يخبرْك قَط! لم أكن أتصوَّر أنك كذَّاب!»

وقال أترسون: «اهدأ أرجوك! ليست هذه ألفاظًا مناسبة!»

وندَّت عن الآخر قهقهةٌ وحشيةٌ عاليةٌ، وإذا به يُدير المفتاح في القفل بسرعةٍ خارقةٍ، ويختفي داخل المنزل.

وظلَّ مستر أترسون واقفًا بُرهةً بعد ذهاب مستر هايد، صورة ناطقة للقلق. ثم بدأ يذرَع الشارع متمهِّلًا، وكان يتوقَّف كلَّ خطوة أو خطوتين واضعًا كفَّه على جبينه كأنما تَعصُره الحيرة. كانت المشكلة التي ينظر الآن فيها في أثناء السير؛ من نوعٍ نادرًا ما يجِدُ الحلَّ. فالمستر هايد كان شاحب اللون، قميء الجسم، يوحي للناظر أنَّه مشوَّه من دون أن

تكون لديه عاهةٌ معروفة،[٧] وكانت بَسْمَته كريهة، وقد قدَّم نفسه للمحامي بمزيجٍ فتَّاكٍ من الخوف والجرأة، وكان يتحدث بصوتٍ مبحوحٍ هامسٍ متقطِّعِ النبرات. وإذا كانت هذه جميعًا من المثالب؛ فلم تكن تستطيع في مجموعها إيضاح ما شَعَر به مستر أترسون آنذاك من تقزُّزٍ لم يعهده في حياته، إلى جانب المقت والخوف. وقال في نفسه وقد غلبَتْه الحيرة: «لا بدَّ أنَّ في الأمر شيئًا آخر. بل إنَّ في الأمر قَطعًا شيئًا آخر، لو استطعتُ أن أعْثُر على اسمٍ له، فليرحمْني الله! الرجل لا يكاد ينتمي إلى بني البَشَر! هل نقول إنه أشبه بساكني الكهوف في عصور ما قبل التاريخ،[٨] أم تُراه النموذج الحي للكراهية دونما سبب محدَّد،[٩] أم تُراه مجرد إشعاع نفسٍ دنِسةٍ ينضح به صلصال الجسم الذي تبدَّلتْ صورته من الدنَس؟ أظنُّ أنَّ الاحتمال الأخير صائبٌ. واهًا لك يا صديقي القديم الدكتور جيكل! لو قُدِّر لي أن أقرأ توقيع إبليس على وجه بَشَرٍ؛ كان ذلك في وجه صديقك الجديد!»

إذا انعطفت بعد المرور برُكن الشارع الجانبي، مررت بميدانٍ تحيط به منازلُ جميلةٌ قديمةٌ، أخنى عليها الدهر بعد العزِّ في معظمها، وأصبح يُقيم فيه المستأجرون شُققًا وغُرفًا، وهم من شتَّى الألوان والأصناف من الناس؛ من رسَّامي الخرائط إلى المهندسين المعمارين، إلى المحامين المثيرين للرِّيبة، إلى سماسرة الصفقات المغمورة. ولكن أحد هذه المنازل، الثاني بعد طرف الشارع، لا يزال يسكنه أصحابه بأكمله، وتوقَّف مستر أترسون

---

[٧] «يوحي للناظر أنَّه مشوَّه من دون أن تكون لديه عاهةٌ معروفة»: الاستناد إلى ما «لا يوصف»؛ من الخصائص الأصيلة في القَصص القوطي والخيالي. وكان الكثير من هؤلاء القصَّاصين — من السيدة رادكليف إلى آرثر ماكين — قد استخدموا هذا الأسلوب الإيحائي بصورةٍ بارزةٍ. وستيفنسون يستخدم هذه الاستراتيجية البلاغية لزيادة الصفات الغامضة المخيفة و«اللاإنسانية» عند هايد.

[٨] «أشبه بساكني الكهوف»: الأصل هو (troglodytic) الصفة التي تصف سكان الكهوف في عصور ما قبل التاريخ. ولكن الاسم منها، وهو (Troglodyte)، يطلق أيضًا على ما يسمَّى «القرَدة البشرية» (anthropoid apes)؛ مثل الغوريلا والشيمبانزي.

[٩] «الكراهية دونما سبب محدَّد»: في الأصل إشارة ثقافية (the old story of Dr Fell)، وهي إشارة إلى ترجمةٍ لأحد إبِجرامات مارتيال تتضمن التعريض التالي بكاهنٍ يرأس كنيسة «كرايست تشيرش» في أكسفورد إبَّان القرن السابع عشر، وتقول الكلمات ما يلي: «يا دكتورْ فِلْ! إنَّي لستُ أحبُّك!/ أمَّا السبب فلا أَقدِر أن أعرِفَه/لكنِّي أعلم حقَّ العِلم وحَسْب/أنِّي لستُ أحبُّك! يا دكتورْ فِل!» والمعنى هو ما أورده النص العربي المترجَم.

عند بابه الذي كان يَشِي بالثراء العظيم والعيش الرخيِّ، وإن كان غارقًا في الظلام باستثناء ضياء القسم الزجاجي العلوي في الباب، وحين طَرَق المحامي الباب؛ فَتَحه له خادمٌ مسنٌّ أنيقُ الملبس.

وسأله المحامي: «هل الدكتور جيكل بالمنزل يا بوول؟»

وقال الخادم وهو يُدخل الزائر: «سأَرَى يا مستر أترسون.» ودخل المحامي قاعةً فسيحةً مريحةً منخفضةَ السقف، وأرضيتها من البلاط، وتُستخدم في تدفئتها (مثل قصور الريف) مدفأةٌ موقدةٌ يسطع فيها الجمر، وصواناتها الفاخرة من خشب البَلُّوط. وسأله الخادم: «تودُّ الانتظار هنا يا سيدي بجوار المدفأة، أم أصحبك بمصباحٍ إلى غرفة الطعام؟»

قال المحامي: «هنا، شكرًا.» واقترب من المدفأة، واستند إلى الرفِّ العالي فوقها. كانت هذه القاعة التي تُرك فيها وحده، قد وضع صديقه الدكتور تصميمها الذي يمثِّل نزوةً خاصةً، وقد اعتاد أترسون نفسه أن يشير إليها باعتبارها أجمل غرفة في لندن. ولكنه كان يشعر الليلة برِعْدةٍ في دمه، وكان وجه هايد يَرِينُ ثقيلًا على ذاكرته، كما انتابه إحساسٌ (نادرٌ في حالته) بالغثيان والنفور من الدنيا. وكان الاكتئاب الذي يُغشي نفسه؛ يجعله يجِدُ خطرًا في أشعة المدفأة المتراقصة فوق الصوانات المصقولة، وفي ارتجاف ظلِّه القَلِق فوق السقف. وأخجله أن يشعر بالارتياح حين عاد الخادم بعد بُرهة ليعلن أن الدكتور جيكل قد خرج.

وقال: «شاهدتُ مستر هايد يدخل من باب غرفة المَشرَحة القديم؛ فهل يصحُّ هذا في أثناء غياب الدكتور جيكل؟»

فقال الخادم: «نَعَم يا سيدي؛ فمستر هايد لديه مفتاح.»

وعاد المحامي يقول بنبرة استغراق في التفكير: «يبدو أنَّ سيدك يثق ثقةً كبيرةً في ذلك الشاب يا بوول.»

وقال بوول: «نَعَم يا سيدي؛ بكل تأكيد. ولدينا جميعًا أوامر بطاعته.»

فسأله أترسون: «لا أظن أنني قابلتُ مستر هايد هنا من قبل؟»

فأجابه القهرمان قائلًا: «بالطبع لا يا سيدي؛ إذ لا يتناول الطعام هنا أبدًا. والواقع أننا لا نراه إلا لمامًا في هذا الجانب من المنزل، إذ غالبًا ما يدخل ويخرج من المختبر.»

– «طابت ليلتك إذن يا بوول.»

– «تُصبح على خير يا مستر أترسون.»

وانطلق المحامي عائدًا إلى بيته بقلبٍ يَرِينُ عليه هَمٌّ شديد، وقال في نفسه: «مسكينٌ أنت يا هاري جيكل! يراودني الخوف بأنه في ورطةٍ كبرى! فقد كان طائشًا في شبابه، قَطعًا منذ زمنٍ بعيد، ولكن الذنوب عند الله لا تسقط بالتقادم. نَعَم؛ لا بدَّ أنَّ هذه هي الحقيقة، إذ عاد شبح خطيئةٍ قديمة، أو سرطان عارٍ كان يخيفه، وعاد العقاب بخطًى بطيئة[١٠] بعد اقتراف الذنب الذي سَقَط من الذاكرة وبرَّره حُب الذات.» وأحسَّ المحامي بالخوف من هذه الفكرة؛ فجَعَل يتأمل ماضيه الشخصي، ويتفقد جميع زوايا ذاكرته؛ خشيةَ أنْ يجِدَ فيها سيئةً ما أغفلها، وقد تثِب من مكمنها مثل «عفريت العلبة»، وتنكشف لعينيه. ولكن ماضيه كان يخلو من الآثام إلى حدٍّ بعيدٍ، وما أقلَّ مَن كان يستطيع مثله أن يستعرض سجلَّ حياته دون مخاوف، لكنه تذكَّر السيئات الكثيرة التي اقترفها فأحسَّ بالتواضع لذِكر ضعفه البشري، ثم عاد يشعر بالامتنان المتعقِّل على ما به من مخاوف إزاء المرات الكثيرة التي كاد يرتكب فيها سيئاتٍ ثم تجنَّب الوقوع فيها. ثم عاد إلى موضوعه السابق فلاحتْ له بارقةُ أملٍ. قال في نفسه: «إننا لو فحصنا أحوال مستر هايد هذا، فلا بدَّ أن نكتشف أسرارًا شنيعةً حالِكةَ الظُّلمة، إن قُورن بها أسوأ ما فَعَله جيكل المسكين. بدا الأخير مشرِقًا كضوء الشمس! لا يمكن أن تستمرَّ هذه الحال على ما هي عليه! إنَّ البرد ليَسري في عروقي عندما أتصوَّر ذلك المخلوق وهو يتسلَّل كاللصِّ إلى غرفة نوم هاري. مسكينٌ يا هاري! ما أفظعَ إيقاظَك ولفْتَ نظرك إلى ما يجري! ويا للخطر الكامن فيه! فإذا اشتبه هايد هذا في وجود الوصية؛ فقد لا يصبر بل يعمل على التعجيل بالحصول على الميراث. نَعَم؛ لا بدَّ أن أعقد العزم وأبذل الهمَّة.» وأضاف في خاطره: «لو سمح لي جيكل بذلك وحَسْب! لو يسمح لي جيكل بذلك وحَسْب.» إذ لاحتْ لعَينِ ذهنه، بوضوحِ اللوح الشفَّاف، الشروط الغريبة في الوصية.

[١٠] «بخطًى بطيئة»: في الأصل مصطلح إيطالي هو (Pede claudo)، ومعناه الحرفي: «بقَدَمٍ فيها عَرَجٌ»، أو «ببطءٍ بسبب عَرَجه»؛ فأتى النصُّ العربي بالمعنى الذي يدركه قارئ الإنجليزية ما دام المقصود هو البطء وحَسْب.

وكان الدكتور جيكل مرتاح البال تمامًا

وبعد أسبوعين، وبمصادفةٍ سعيدةٍ إلى حدٍّ كبيرٍ؛ كان الدكتور قد دعا إلى إحدى مآدبه البهيجة نحو خمسة أو ستة من زملائه القدامى، وكانوا جميعًا أذكياء يتمتعون بحسن السمعة، ذوي حُكْمٍ صائبٍ على الأنْبِذة الطيِّبة، وتحايَل مستر أترسون حتى ظلَّ في منزل صديقه بعد رحيل الآخرين. ولم يكن ذلك بِدْعةً، بل سَبَق أن حَدَث عشرات المرات. وحيثما كان أترسون يلقى الحب، كان ذلك حبًّا غامرًا، كان المضيفون يحبُّون أن يصطفوا المحامي ذا الطبع الصارم بمجرد أن يَضَع المِرحون الثرثارون أقدامهم على عتبة المنزل، وكانوا يحبُّون أن يجلسوا قليلًا في صحبة الرَّجل الذي لا يفرض وجوده على أحد، مستمتعين بعزلته، مستمدِّين من صمْته البليغ ما يُعيد اتِّزانهم بعد الجهد والتوتُّر اللذَيْن صاحبا المرَح. ولم يكن الدكتور جيكل مستثنًى من هذه القاعدة؛ فجلس قبالة صديقه على الجانب الآخر من المدفأة، كان الدكتور رجلًا ضخمَ الجِرم في الخمسين من عمره، حَسَن التكوين حليق اللحية، وربما بدتْ على وجهه مِسحةٌ من الدهاء، ولكن — بالقَطع — كلُّ ما يدلُّ على التمكُّن من مهنته وطيبة قلبه، وإن اتَّضح من مظهره مدى ما يمكنه من مودةٍ صادقةٍ دافئةٍ للمستر أترسون.

وشَرَع أترسون يقول: «كنتُ من مدةٍ أودُّ التحدث إليك يا جيكل؛ هل تذكُر وصيتك؟»

كان بإمكان مَن يُنعم النظر أن يدرك أن الموضوع منفِّر للطبيب، لكنه تغلَّب على نفوره بنبراتِ مرَحٍ قائلًا: «مسكينٌ أنت يا أترسون! لم يسعدك الحظُّ في هذا العميل! لم أشهد رجلًا أصابه الاكتئاب الذي تسبَّبت فيه وصيتي لك! إلا إن كان من وراء ذلك لانيون — المتحذلِق المتزمِّت — الذي يعارض ما يعتبره من قبيل البدع العلمية المضلِّلة من جانبي. نَعَم؛ أعرف أنه كريم الخُلق — لا تقطِّب جبينك! — بل رَجلٌ ممتازٌ، وأعتزم

دائمًا أن أُكثر من لقاءاتي معه، ولكنه متحذلِقٌ متزمِّتٌ، على الرغم من هذا كله! بل جاهلٌ ذو حذلقةٍ صارخةٍ! لم يخِبْ ظنِّي في رجل مثلما خاب في لانيون!»

وتجاهل أترسون هذا الموضوع بحسمٍ قاطعٍ، وتابع حديثه قائلًا: «تعرِف أنني لم أوافق قَط عليها.»

وقال الدكتور بنبرةٍ فيها بعض الحدَّة: «وصيتي؟! نَعَم؛ قَطعًا! أعرف ذلك. فقد أخبرتَني بذلك.»

واستمرَّ المحامي يقول: «إذن فأنا أُخبرك من جديد. وقد اكتسبت أخيرًا بعض المعرفة بالشاب هايد.»

وفجأةً كسا الشحوب وجه الدكتور جيكل الضخم الجميل حتى غاض اللون من شفتيه، وأظلَّ عينيه لونٌ أَسودُ وهو يقول: «لا أريد أن أسمع المزيد، كنتُ أظن أننا اتفقنا على عدم الخوض في هذه المسألة.»

وقال أترسون: «ولكن ما سمعته بغيض.»

وردَّ الدكتور قائلًا: «لن يغيِّر من الأمر شيئًا، أنت لا تفهم موقفي.» كان تفكيره مشوَّشًا بعض الشيء؛ إذ استمرَّ يقول: «إنني في حالٍ مؤلِم. اسمع يا أترسون؛ إنَّ موقفي غريبٌ، بل بالغُ الغرابة. إنه أمرٌ يستعصي إصلاحه بالكلام.»

وقال أترسون: «جيكل! أنت تعرفني؛ إنَّني أهلٌ للثقة. أَفْضِ لي بحقيقة الأمر ولن أُفشي السرَّ، ولا شكَّ عندي أنني أستطيع إنقاذك ممَّا أنت فيه.»

فقال الدكتور: «يا عزيزي أترسون! هذا كرمٌ منك، ولا شكَّ أنه يشهد بكرم أخلاقك، ولا أستطيع أن أجِدَ الكلمات القادرة على التعبير عن شكري. إنني أصدِّقك تمامًا، وثقتي بك تسبق ثقتي بأيِّ إنسان آخر، بل ثقتي بنفسي لو استطعتُ الاختيار! ولكنني أؤكد لك أن الأمر ليس كما تتصوَّره، وليس بهذا القَدْر من السوء، ولكنني — ابتغاءَ راحة بالك وحَسْب — أقول لك هذا فقط: في اللحظة التي أختارها أستطيع التخلُّص من مستر هايد. ولنتصافح على صدق ما أقول، وأشكرك مِرارًا وتَكرارًا، ودعني أضف كلمةً صغيرةً يا أترسون، وأنا على يقين أنك ستتقبَّلها بصدرٍ رحب: هذه مسألةٌ شخصية، وأرجوك ألَّا تُثيرها.»

وانشغل أترسون بالتفكير هُنيهة فيما سمِعَ وهو ينظر إلى نار المدفأة، ثم قال أخيرًا وهو ينهض من مقعده: «لا شكَّ عندي أنك مُصيب تمامًا.»

وواصَلَ الدكتور حديثه قائلًا: «جميل! لكننا ما دُمنا قد تعرَّضنا لهذه المسألة — وأرجو أن يكون ذلك للمرة الأخيرة — فإنني أريدك أن تفهم أمرًا واحدًا؛ إنني أهتمُّ في الواقع اهتمامًا شديدًا بهايد المسكين. أعرف أنك رأيتَه؛ فَلَقد أخبرني. ويؤسفني أنه كان وقحًا معك. ولكنني أقول مخلصًا: إنني أهتمُّ اهتمامًا شديدًا، بل إلى أقصى حدٍّ، بهذا الشاب. وإذا رحلتُ من هذه الدنيا يا أترسون؛ فأرجوك أن تعِدَني بأن تحتمله وتضمن حصوله على حقوقه. وأعتقد أنك لن تتوانى عن ذلك إذا علمت كلَّ شيء، ولسوف تُزيح عَبَثًا يَرينُ على ذهني لو وعدتني هذا الوعد.»

وقال المحامي: «لا أستطيع التظاهر بأنني سوف أحبُّه يومًا ما.»

وقال جيكل في نبراتِ توسُّل واضعًا يده على ذراع صاحبه: «لا أطلب ذلك منك! كل ما أطلبه هو العدل. لا أسألك إلا أن تساعده من أجلي، عندما أختفي من هذه الدنيا.»

وندَّت عن أترسون آهةٌ لم يستطع كتمانها، وقال: «لا بأْس، أعِدُك بذلك.»

قضية مقتل كيرو

وبعد نحوِ عامٍ، في شهر أكتوبر عام – ١٨م، أفزعتْ لندن جريمةٌ ذات وحشيةٍ فريدةٍ، وزادَ من شهرتها الموقع السامي الذي كان يشغله القتيل. كانت التفاصيل قليلة ومفزِعة. كانت خادمةٌ تقيم وحدها في منزلٍ لا يبعد كثيرًا عن النهر،[١] وصعِدت إلى الطابق العلوي لتنام في نحو الحادية عشرة مساءً. وعلى الرغم من أنَّ الضباب زَحَف على المدينة في الهزيع الأول؛ فقد كانت السماء صافية في أوائل الليل، وكان البدْر يُلقي ضوءه الساطع على الحارة التي يطلُّ عليها شُبَّاك الخادمة. ويبدو أنها كانت ذات ميولٍ رومانسيةٍ؛[٢] إذ جلستْ على صندوقها الذي كان قد وُضِعَ تحت الشُّبَّاك مباشرة، واستغرقتها أحلام اليقظة، وعندما

[١] «في منزل لا يبعد كثيرًا عن النهر»: أين على وجه الدقَّة؟ وهنا أيضًا نجِدُ أنَّ الإشارات الجغرافية عند ستيفنسون غير دقيقة إلى درجة إحباط القارئ. إنَّ هذا المنزل هو مكان إقامة الفتاة لا مكان عملها، ولذلك فمن الأرجح أن يكون في حيٍّ من أحياء الطبقة الدنيا. ويبدو أن عضو البرلمان كيرو قد ضلَّ الطريق. ومن التفاصيل التي تؤيِّد ذلك: الإشارة في الجملة السابقة من النَّص إلى «الحارة» التي يقع فيها المنزل، وهو ما يوحي بأنَّ الحارة أقرب إلى الشارع الضيِّق مثل الشوارع الضيِّقة الموجودة في المناطق العتيقة من العاصمة، مثل شادويل أو لايمهاوس أو وابينج، أو حتى منطقة بيرمونزي. ولكن ما عسى نائبٌ هرِمٌ في البرلمان أن يفعل في هذا الوقت المتأخر من الليل، في أيٍّ من هذه المناطق (الأكثر ملاءمةً لهايد)؟ كلُّ شيء ممكِنٌ في هذه القصة التي تعرِض ازدواج حياة البعض وخداع المظاهر.

[٢] «ويبدو أنها كانت ذات ميول رومانسية»: كانت الخادمة مولَعةً بالاستغراق في الخيال وما يأتي به من صورٍ مُستقاةٍ من الأدب الرومانسي، كما يدلُّ على ذلك تذوُّقها لضوء القمر وللأحلام. وتُلقي هذه الرومانسيةُ ظلال الشكِّ على صِدق شهادتها، كما يقول ريتشارد دروري، وتقدِّم إلينا عنصرًا من «التوهُّم» الذي يشوب أيَّ سردٍ منطقيٍّ للحادثة. ويضيف دروري: إننا يمكن أن نقرأ الفقرة باعتبارها

قُدِّر لها أن تروي ما شَهِدته، والدموع تنهمر على خدَّيها، كانت تردِّد أنها لم تشعر في حياتها بمثل ما شَعَرتْ به تلك الليلة من اطمئنانٍ إلى جميع الخَلق، ومن تعاطفٍ مع الدنيا بأَسْرها. وبينما هي جالسةٌ إذ شاهدتْ رجلًا هرِمًا وسيمًا أبيضَ الشعر يسير في الحارة مقترِبًا من المنزل، ورأت رجلًا آخر بالغ القِصر يتقدَّم لملاقاته — وإن لم تلتفت كثيرًا إليه أول الأمر. وعندما تقاربا إلى الحدِّ الذي يسمح بالتحادُث، وكان تلاقيهما يقع تحت عينَي الفتاة مباشرة، انحنى الرجل الهرِم وخاطب الآخر بأسلوب ينمُّ عن التأدُّب الشديد، ولم يبدُ لها أن موضوع الحديث كان بالغ الأهمية، بل كان يبدو لها أحيانًا من إشارات يديه كأنما كان يستفسر عن طريق وحَسْب، ولكن ضوء البدر كان يسطع على وجهه في أثناء حديثه، وسرَّ الفتاة أن تتطلع إليه؛ إذ كان فيما يبدو يوحي بطيبة القلب الغامرة والبراءة في العالم القديم، وإن كان يوحي أيضًا بالسمو النابع من الرضا عن النفس المستند إلى أساسٍ متينٍ. وانتقلت عينُها بعد قليل إلى الرجل الآخر، وأدهشها أن تتعرف إليه؛ إذ كان رجلًا يُدعى مستر هايد، وكان قد زار مخدومها ذات يوم وشعرت بالنفور منه. كان يحمل في يده عصًا غليظةً، وكان يعبث بها، وإن لم يُجِب عن كلمةٍ واحدةٍ، بل بدا أنه يُصغي بنفاد صبر لم يستطع السيطرة عليه. وفجأةً اندلعت شعلة غضبه العارمة، فجعل يضرب الأرض بقَدمَيه، ويلوِّح بالعصا (حسبما قالت الفتاة) كالمجنون. وتراجع الرجل الهرِم خطوةً واحدةً، كمَن بُوغت مباغتةً شديدةً، وأحسَّ ببعض الإهانة، وفي هذه اللحظة تجاوَزَ مستر هايد كل الحدود وانهال على الرجل ضربًا بالعصا حتى أسقطه على الأرض. وانقضَّ في اللحظة التالية بضراوةِ قِرْدٍ متوحِّش[٣] وجعل يدوس على الآخر بقَدمَيه، ويَلكُمه لكماتٍ متلاحقةً تكسَّرت فيها عظام الهرِم بصوتٍ مسموعٍ وانتفض جسده على أديم الشارع. ولم تحتمل الفتاة بشاعة هذه المناظر والأصوات فسقطتْ مُغمًى عليها.

«تفسيرًا للأحداث من زاوية «روايات الإثارة»، على لسان الخادمة التي رأينا أنَّها متأثرةٌ في لغتها بأعراف الآداب الجماهيرية» (دروري، (١٩٩٣م)، ص١١٧).

[٣] «بضراوة قرد متوحش»: في هذا التعبير إشارةٌ قويةٌ إلى ضرورة تفسير هايد في إطار النظريات المعاصرة عن مراحل الارتقاء وفقًا لنظرية التطور، وعكس هذا الارتقاء أي النكوص أو الانتكاس. انظر القسم الذي يحمل عنوان «قرود وملائكة» في المقدمة.

وعندما أفاقت كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحًا فاتصلت بالشُّرطة. كان القاتل قد مضى من زمنٍ طويلٍ، ولكن القتيل كان مُلقًى في وسط الحارة، وقد تشوَّهت جثته إلى حدٍّ لا يُصدَّق. وأما العصا التي استُخدمت في القتل — فعلى الرغم من أنها مصنوعة من خشبٍ صلبٍ غليظٍ نادرٍ — فقد انكسرتْ في منتصفها بسبب شدة تلك القسوة الرعناء، وكان أحد نصفيها قد تدحرج وانحشر في البالوعة المجاورة للحادث، ولا بدَّ أن القاتل قد أخذ معه النصف الآخر. وعُثر مع القتيل على حافظة نقودٍ وساعةٍ ذهبيةٍ، ولكن لم يكن معه أيُّ بطاقات أو أوراق، باستثناء ظرفٍ مغلقٍ عليه طابع بريد، وربما كان ينتوي إرساله في البريد، وكان عليه اسم مستر أترسون وعنوانه.

وأحضر بعضهم الخطاب إلى المحامي في صباح اليوم التالي، قبل أن ينهض من فراشه، ولم يَكَد يشاهده ويسمع عن الظروف المحيطة به، حتى قال في وقارٍ: «لن أقول شيئًا حتى أرى الجثة؛ قد يكون الأمر بالغ الخطورة. لو تكرمتم أن تنتظروا حتى أرتدي ملابسي.» وتعجَّل في إفطاره، ووجهه لا يزال متجهِّمًا وانطلق إلى مَخفر الشُّرطة، أي إلى حيث حُملت الجثة. وما إن دَخَل الغرفة حتى أومَأَ قائلًا: «نَعَم؛ أعرفه. يؤسفني أن أقول إنه السير دانفيرس كيرو.»

وصاح الشرطي: «يا الله يا سيدي! هل هذا ممكن؟» وفي اللحظة التالية برقت عيناه بريق مَن يطمح في الترقِّي في مهنته؛ فأردف يقول: «لسوف يثير هذا لغطًا شديدًا. وربما استطعتَ مساعدتنا في القبض على الفاعل.» وسَرَد بإيجازٍ ما شاهدته الفتاة، وأراه العصا المكسورة.

كان مستر أترسون قد ارتعد عندما سَمِع اسم هايد، ولكن عند عَرض العصا عليه لم يَعُد لديه أدنى شكٍّ. فعلى الرغم من كسرها وآثار الضرب عليها؛ فقد تعرَّف عليها إذ كان قد أهداها قبل سنوات إلى هنري جيكل.

وتساءل: «هل مستر هايد هذا شخصٌ ضئيلُ الجِرم؟»

وقال الشرطي: «ضئيلٌ وخبيثُ المنظر إلى حدٍّ بعيدٍ، حسبما وصفته الخادمة.»

ونظر مستر أترسون في الأمر قليلًا، ثم رفع رأسه وقال: «لو أتيتم معي في عربتي المستأجَرة؛ أظنُّ أنني أستطيع اصطحابكم إلى منزله.»

كانت الساعة آنذاك قد قاربت التاسعة صباحًا؛ فانتشر أول ضباب يهبط في هذا الفصل من العام، وانسدل ستارٌ عظيمٌ بنيُّ اللون على صفحة السماء، ولكن الريح كانت تواصل هبوبها فتشتَّت تلك الأبخرة المحاصِرة، وهكذا كان مستر أترسون يشهد في أثناء

زحف العربة من شارع إلى شارع عددًا مدهِشًا من درجات الشَّفَق وألوانه، ما بين دُكْنَة غَسَق المساء عند حلول الليل، وبين توهُّج لونٍ بنيٍّ عميقٍ أخَّاذٍ مثل لونِ لهيبٍ غريبٍ، وأحيانًا كان الضباب ينقشع تمامًا لِلَحظةٍ عابرةٍ عندما يخترقه شعاعٌ نحيلٌ من ضوء النهار، ساربًا بين باقات الأبخرة. وتطلَّعت عينا المحامي إلى حيٍّ سوهو[٤] الكئيب من كل فُرجة لاحت له في هذا الجو، فبدا له بطرقاته الموحِلة، وقذارة سابلته، ومصابيحه التي لم تُطفأ قَط، أو أُعيدت إضاءتها لصدِّ تلك الغزوة الجديدة للظلام، وما تُشيعه من الأشجان، كأنما كان من أحياء مدينةٍ يراها الحالم في كابوس. كما كانت الأفكار في ذهنه ذات صبغةٍ بالغةِ القتامة. وعندما لمحتْ عيناه رفيقَ رحلته شعَرَ بمَسيسٍ من ذلك الرعب من القانون ورجال القانون الذي أحيانًا ما يُصيب أشرف الشرفاء.

وعندما توقفت العربة أمام العنوان المطلوب؛ انقشع الضباب قليلًا وكَشَف له عن شارعٍ قذِرٍ، وخَمَّارة، ومطعمٍ فرنسيٍّ حقيرٍ، وحانوتٍ يبيع المجلات والأطعمة الرخيصة، وكثيرٍ من الأطفال في أسمالٍ باليةٍ مكدَّسين في مداخل المساكن، وعددٍ كبيرٍ من النساء من جنسياتٍ مختلفةٍ خارجاتٍ يحملْن مفاتيحهن لشرب قدح في الصباح، ولم يلبث أن عاد الضباب ليُغشي المنطقة، بلونٍ بنيٍّ مثل أَديم الأرض؛ فعزله عن ذلك المكان المنحطِّ. كان ذلك مَسكن الرجل المقرَّب من قلب هنري جيكل .. رجل كُتب له أن يرِث ربع مليون جنيه إسترليني.

وفتحت الباب عجوزٌ بشرتها عاجية وشعرها فضِّي. كانت ذات وجه يلوح فيه الشر وإن أخفى النفاق تجاعيده، ولكن سلوكها كان ممتازًا. قالت: إن ذلك كان فعلًا منزل

[٤] «سوهو»: منطقة تبلغ مساحتها نحو ميلٍ مربَّعٍ، تقع جنوب شارع أكسفورد، شمال ميدان بيكاديلي، وغرب طريق تشارينج كروس. واسمها مشتقٌّ من صيحات الصيادين، وهو ما يشير إلى أنها كانت ذات يوم منطقةً يرتادها صائدو الثعالب عندما كانت المساحة حولها من الحقول الطليقة. وأصبحت بحلول أواخر القرن السابع عشر مَلاذًا للفرنسيين الفارِّين من الاضطهاد الديني، ووجود «المطعم الفرنسي الحقير» يشهد على ذلك، كما يشهد عليه وجود الأمهات الأجنبيات. وعلى الرغم من وجود منازلَ باذخةٍ في ميداني سوهو وليستر؛ فإن هذه المنطقة ظلَّت ردحًا طويلًا من الزمن مرتبطة بالرَّثَاثَة والإجرام؛ إذ تشترك في حدودها مع الأحياء الفقيرة سيئةِ السمعة مثل حيِّ «سانت جايلز» وحيِّ «سيفن ديالز» (حيث تُباع المجلات الرخيصة أو «البذيئة»). ولا تزال هذه المنطقة مركزًا للعمل بفنون الفُرْجة القائمة على الجنس في العاصمة.

مستر هايد، لكنه ليس موجودًا. وأضافت: إنه جاء في ساعةٍ متأخرة في البارحة، لكنه لم يَلبث أن رَحَل بعد أقلَّ من ساعة، ولم يَكُن في ذلك ما يدعو للاستغراب؛ فليست له عاداتٌ ثابتة، وكثيرًا ما كان يَغيب عن البيت، ثم قالت إنها لم تره، مثلًا، منذ شهرين قبل قُدومه ليلة أمس.

وقال المحامي: «لا بأس إذن، نريد أن نرى شقته.» وعندما بدأت المرأة في الإشارة إلى استحالة ذلك، أضاف المحامي: «لا بدَّ إذن أن أُخبرك بهُوية هذا الشخص؛ إنَّه المفتش نيوكومن من مباحث شرطة إسكتلنديارد.»

وأضاء وجه المرأة بفرحةٍ بغيضة وقالت: «آه! لقد وَقَع في ورطة! ماذا فعل؟»

وتبادل مستر أترسون النظرات مع المفتش الذي قال له: «لا يبدو أنه يتمتع بحبٍ كبير.» ثم قال للمرأة: «والآن أيتها المرأة الكريمة، دعيني وحَسْب ألقي نظرة على شقته مع هذا السيد المحترم.»

كان المنزل كله خاليًا باستثناء وجود المرأة، ولم يكن مستر هايد يستخدم سوى غُرفتين، ولكنهما كانتا ذواتي أثاثٍ فاخر، وتنطقان بالذوق الرفيع. كانت إحدى الخِزانات مليئة بالأنْبِذة، وكانت أدوات المائدة من الفضة، والمفارش أنيقة، وعلى الجدار عُلِّقتْ صورةٌ جميلة، هديةٌ (في تصوُّر أترسون) من هنري جيكل الذي كان ذوَّاقة للفنون. وكانت السجاجيد ذات نسيجٍ فاخر وألوانٍ ممتعة، ولكن الشقة كانت في هذه اللحظة حافلة بدلائل تعرُّضها للسلب والنهب منذ وقتٍ قريب وفي عجلة؛ فالملابس مُلقاة على الأرضية، وقد أُخرجت جيوبُها وأُفرغت ممَّا فيها، والأدراج ذوات الأقفال المُحكَمة مفتوحة، وفي المدفأة كومة من الرماد الأشيب الذي يوحي بحرْقِ كميةٍ كبيرة من الأوراق فيها، ومن بين هذه الكومة أخرج المفتش كعب دفتر شيكات أخضر، كان قد قاوم الحريق، كما وجَدَ نصف العصا الآخر خلف الباب، ولمَّا كان العثور عليها قد أكَّد صحة شكوكه؛ أعلَنَ المفتش أنه سعيد بما وَجَد. وعندما قصد البنك ووَجَد عدَّة آلاف من الجنيهات في حساب القاتل، اكتمل رضاه.

وقال لمستر أترسون: «ثِق فيما أقول يا سيدي. لقد أصبح في قبضة يدي. لا بدَّ أنه فَقَد صوابه، وإلا ما تَرَك العصا، وأهم منها حرق دفتر الشيكات. قَطعًا؛ فما المال إلا الحياة للإنسان. ولم يَعُد علينا إلا أن ننتظره في البنك، ثم نوزِّع المنشورات للقبض عليه.»

ولكن تنفيذ الخطوة الأخيرة لم يكن بالسهولة التي تصوَّرها؛ فلم يكن يعرف مستر هايد إلا عددٌ محدود من الناس، بل إنَّ رئيس الخادمة لم يكن قد رآه إلا مرتين، وكان

من المُحال العثور على أسرته في أيِّ مكان، ولم تُؤخذ له صورةٌ فوتوغرافية قَط،[٥] والعدد المحدود من الذين استطاعوا وصفه يختلفون اختلافًا كبيرًا فيما بينهم، كما هو معهود في شهود الرؤية. ولم يكونوا يتفقون إلا حول أمرٍ واحد، ألا وهو الإحساس المقيم لدى الذين شاهدوا الهارب بأنَّ به تشوُّهًا يستعصي التعبير عنه.

[٥] «لم تُؤخذ له صورةٌ فوتوغرافية قَط»: كان استخدام التصوير الفوتوغرافي باعتباره وسيلةً لمساعدة تحديد هُويات الأشخاص؛ قد بدأ ينتشر على نطاقٍ واسع في تلك الآونة.

حادثة الخطاب

في وقتٍ متأخر من عصرِ أحد الأيام وَصَل مستر أترسون إلى باب منزل الدكتور جيكل، وأدخله الخادم من فَوره، وسار معه عبْر المطبخ ثم عبْر ساحةٍ كانت حديقةً يومًا ما، إلى المبنى الذي كان يُشار إليه دون تمييز باسم المختبر أو باسم قاعة التشريح.[1] كان الطبيب قد اشترى المنزل من وريثِ جرَّاحٍ شهير، ولَمَّا كانت ميوله كيميائية أكثر منها تشريحية؛ فقد غيَّر مصير المبنى الواقع في آخر الحديقة. كانت تلك المرة الأولى التي يدخل المحامي فيها ذلك القِسم من منزل صديقه، وتطلَّعت عيناه بدهشة إلى المبنى القذر الذي لا نوافذ له، وجَعَل يحدِّق فيما حوله وقد اعتراه النفور من غرابة المكان وهو يعبُر غرفة «العمليات» التي كانت يومًا ما تزخر بالطلَّاب الحريصين على العلم، وتبدو الآن صامتةً نحيلة؛ فالمناضد قد صُفَّت عليها الأجهزة الكيميائية، وعلى الأرضية تتناثر الصناديق والقشُّ المستخدم في تعبئتها، والضوء الخابي ينفُذ من «المَنْور» الذي يغشاه الضباب.

[1] «المختبر أو قاعة التشريح»: ممَّا له دلالته أن الباب الخلفي لمنزل جيكل — وهو المرتبط بالممارسات سيئة السمعة التي تتناقض مع الواجهة «المحترَمة» للمنزل الفاخر — يؤدِّي مباشرة إلى قاعة تشريحٍ قديمة. وكما سوف يكتشف الذين يقرءون حكاية ستيفنسون «اختطاف الأجساد»؛ فإن هذا الباب الخلفي هو الذي كان يستعمله الساكن السابق للمنزل في الاتصال بأصحاب التجارة السرية في الجثامين التي تُبعث فيها الحياة من جديد، إذ يشتري الجثث من محترفي اختطاف الأجساد. وتقدِّم هذه التفصيلات رابطةً محيِّرة بين القصتين اللتين نُشرتا في شبه تزامنٍ؛ إذ لم يفصل بينهما سوى عامين. ومن الأرجح أنَّ الوصف الدقيق الذي يقدِّمه ستيفنسون للباب الخلفي في منزل جيكل؛ قد تأثَّر بهذه الظروف وربما كان يمثِّل إلى حدٍّ ما انشغال خياله بتلك القصة السابقة التي تتناول الاحترام في أثناء النهار، والمعاملات المشبوهة في أثناء الليل.

ووَجَد في نهاية الممرِّ دَرَجًا صاعدًا إلى بابٍ مغطًّى بنسيجٍ مخملي أحمر، ومن خلاله دخل مستر أترسون أخيرًا غرفة الطبيب. كانت غرفةً واسعة تمتلئ بالخِزَانات أو الصوانات (الدواليب) ذات الأرفف الزجاجية، ومن بين ما فيها مرآةٌ طويلة متأرجحة، ومنضدة للعمل عليها، وكانت الغرفة تُطلُّ على الفِناء من ثلاث نوافذ عليها قُضبان حديدية. كانت النار مشتعلة في المدفأة، وعلى رفِّ المدخنة مصباحٌ مُوقَد، إذ كان الضباب قد بدأ يغشى المنازل بكثافة، وكان الدكتور جيكل يجلس قريبًا من مصدر الدفء وقد بدا عليه المرض الشديد. لم ينهض لملاقاة ضيفه بل مدَّ إليه يدًا باردةً ورحَّب به بصوتٍ اختلفت رنَّته.

وقال مستر أترسون — حالما غادَر الخادم العجوز الغرفة: «هل سمعت الخبر إذن؟»

وانتابت الطبيب رعشة وقال: «كانوا يردِّدون الخبر بأعلى صوت في الميدان. سمعتُهم في غرفة الطعام.»

وقال المحامي: «كلمة واحدة .. كيرو كان من عملائي مثلك، وأريد أن أتبين موقع خطواتي. لمَ يبلغ الجنون بك حدَّ إخفاء هذا الشخص؟»

وهتف الطبيب قائلًا: «أُقسم يا أترسون أمام الله! أقسم أمام الله ألَّا أُبصره مرةً أخرى. وأتعهَّد أمامك بشرفي أن أقطع صلتي به في هذه الدنيا. لقد انتهى كل شيء. بل إنه في الواقع لا يريد مساعدةً منِّي، فأنت لا تعرفه كما أعرفه، إنه آمِن، إنه يتمتع بأمانٍ كامل، وثِقْ فيما أقول؛ لن يسمع به أحدٌ بعد اليوم.»

وأصغى المحامي في تجهُّم لما قاله صديقه؛ إذ لم يستسغ نبراته المحمومة، ثم قال: «تبدو واثقًا كلَّ الثقة به. وأرجو — من أجلك — أن تكون على صواب، وإذا أُحيلت القضية إلى المحكمة فربما ورَدَ اسمك فيها.»

وأجاب جيكل: «أنا واثق تمامًا منه. وعندي من أسباب هذه الثقة ما لا أستطيع أن أُفصح عنه لأيِّ مخلوق. ولكنني أرجو مشورتك في أمرٍ واحد. لقد تلقَّيت .. لقد تلقَّيت خطابًا. وأنا في حيرةٍ إنْ كان ينبغي تسليمه للشرطة. وأودُّ أن أتركُه في يديك يا أترسون. فأنا واثق من حكمة ما تقضي به، إذ إنَّ ثقتي بك بالغة.»

وسأله المحامي: «تُراك تخشي أن يؤدِّي إلى الكشف عنه؟»

وقال الآخر: «لا، لست في الواقع أكترث لما يحدُث لهايد. لقد انتهيت منه. بل إنَّ ما يشغلني هو شخصيتي، وهي التي أصابها هذا الأمر الكريه بفضيحةٍ من لونٍ ما.»

واستغرق أترسون في التفكير بُرهةً. لقد فاجأته أنانيةُ صديقه، وإن وَجَد فيها ما أراحه. ثم قال آخرَ الأمر: «لا بأس. دعني أرَ الخطاب.»

كان الخطاب مكتوبًا بخطٍّ غريبٍ حروفه قائمة وممهور بتوقيع إدوارد هايد، وكان يقول باختصار إنَّ وليَّ نعمته الدكتور جيكل الذي طالما أساء إليه في مقابل مكرماته الكثيرة؛ ينبغي ألَّا يخشى على سلامته؛ إذ إنَّ لديه من وسائل الفرار ما يعتمد في ثقة عليه. وأبدى المحامي رضاه عن هذا الخطاب؛ إذ إنَّه أقنَعه أنَّ العلاقة الحميمة كانت أفضل ممَّا سعى إليه، ولام نفسه على بعض الشكوك التي راودته في الماضي.[٢]

وسأله المحامي: «هل معك الظرف؟»

وأجاب جيكل: «أحرقتُه، من قبل أن أتبيَّن أمري. ولكن لم يكن عليه خاتم بريد. لا بدَّ أنه سُلِّم باليد.»

وسأله أترسون: «هل لي أن أحتفظ بالخطاب حتى أتأمله مليًّا؟»

وجاءته الإجابة: «أريدك أن تتولى الحكم نيابةً عني، فقد فقدتُ الثقة في نفسي.»

وردَّ المحامي قائلًا: «لا بأس. سوف أنظر في الأمر. لكنني أقول لك كلمة واحدة: هل كان هايد هو الذي أملى الشروط الواردة في وصيتك بشأن ذلك الاختفاء؟»

وبدا أنَّ الطبيب قد أصابتْه نَوبةُ إغماء فأطبق شفتَيه بشدَّة وأومأ بالإيجاب.

وقال أترسون: «لقد حدستُ ذلك! كان ينتوي اغتيالك! لقد نجوتَ بمعجزة!»

وردَّ الطبيب قائلًا في وقار: «لقد فزتُ بما هو أهم في حالتي؛ فلقد تعلَّمت درسًا .. يا لله! ويا له يا أترسون من درس!» وغطَّى وجهه هنيةً بكفَّيه.

وفي طريق خروجه توقَّف المحامي وتبادَل كلمةً أو كلمتَين مع الخادم الهرِم. وقال له: «قل لي بالمناسبة يا بوول، أَلَمْ تتسلَّم اليوم خطابًا جاء به أحد السُّعاة؟ كيف بدا لك شكل حامِل الخطاب؟» ولكن بوول أكَّد له أنَّ الخطابات جميعًا جاءت بالبريد، وأضاف قائلًا: «ولم تكن غير منشوراتٍ دورية.»

وأدَّى هذا الخبر إلى تجديد مخاوف الزائر في أثناء انصرافه. قال في نفسه: «لا بدَّ أن الخطاب قد وصل من باب المختبر، بل من الممكن أن يكون كاتِبُه قد كتَبَه في مكتب الطبيب نفسه. فإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ أن يختلف الحكم عليه وأن يتصدَّى له بالمزيد من الحيطة.» وسَمِع وهو خارجٌ باعةَ الصحف وهم يصرخون حتى بُحَّت

[٢] «إذ أقنعه أن العلاقة الحميمة كانت أفضل ممَّا سعى إليه، ولام نفسه على بعض الشكوك التي راودته في الماضي.» انظر القسم الخاص «بالشهادة» في المقدمة حيث تُنَاقش الظنون الخاصة بالصورة التي ربما اشتبه فيها لهذه «العلاقة الحميمة».

أصواتهم: «طبعة خاصة. جريمة قتل مفزِعة لعضو في البرلمان!» كانت الألفاظ تمثِّل النَّعي الذي شُيِّع به أحد أصدقائه وعملائه إلى مثواه الأخير، ولم يستطع قَهْر المخاوف التي دهمتْه؛ إذ كان يخشى أن تبتلع دوَّامة الفضيحة حُسن سمعة صديقٍ آخرَ من عملائه. كان عليه أن يتَّخذ قرارًا أقل ما يوصف به أنَّه حساس. وعلى الرغم من اعتياده الاعتماد على نفسه، فقد بدأ يراوده الشوق إلى المشُورة. وقال في نفسه إنه ينبغي ألَّا يتلقَّاها مباشرة، بل أن يتحايل للحصول عليها.

ولم يمضِ وقتٌ طويل على ذلك حتى كان يجلس على أحد جانبَي المدفأة في منزله، ومستر جيست، كبير كُتَّابه، على الجانب الآخر، وبينهما على مسافة محسوبة بدقَّة من المدفأة منضدةٌ عليها زجاجة نبيذٍ معتَّق من نوعٍ خاص لم تسطع عليها الشمس زمنًا طويلًا في قَبْو منزله. كان الضباب لا يزال يحلِّق في سُباته فوق المدينة الغارقة فيه، حيث تتلألأ المصابيح مثل حبَّات العقيق الأحمر، وكان موكب حياة المدينة يتدفَّق تحت هذه السحب المنخفضة التي تحاول كِتمانه وخَنْقه، مُنطلَقًا في الشرايين الكبرى بصوتٍ يشبه صوت الريح العاتية. ولكن ضوء نار المدفأة كان يُشيع البهجة في الغرفة، وكانت أحماض النبيذ قد تحلَّلت فاختفتْ من زمنٍ بعيد، وكان لون النبيذ القاتم قد صفا على مرِّ الزمن، مثلما يزداد صَفْو الألوان في النوافذ الملوَّنة، وكان صَهْد الأمسيات الخريفية الحارَّة على مزارع الكروم في سفوح التلال يوشك أن ينطلق من عِقاله فيُشتت سحابات الضباب فوق لندن. وانفرجتْ أسارير المحامي دون أن يدري. وكان مستر جيست أقلَّ مَن يحجب المحامي أسراره عنه، بل لم يكن واثقًا أنه استطاع حَجْب ما كان يقصد حَجْبه عنه من أسرار. وكثيرًا ما كان جيست يزور منزل الطبيب في مهامَّ عملية، وكان يعرف خادمه الهرِم، وليس من المحتمل أنه لم يسمع عن تردُّد هايد على المنزل، وربما استخلص من ذلك بعض النتائج؛ ألم يكن من المستحَبِّ إذن أن يطَّلع على خطابٍ قد يُتيح التفسير الصحيح لذلك اللغز، خصوصًا أن مستر جيست عالمٌ متبحِّر بفنِّ الخطوط وناقدٌ حصيفٌ له، ومن ثَم فقَدْ يرى أن هذه الخطوة خطوةٌ طبيعية وتوحي بالتكريم للكاتب؟! وإلى جانب هذا كان الكاتب رجلًا يوثَق بمشورته. ومن المستبعَد أن يقرأ تلك الوثيقة الغريبة من دون إبداء ملاحظةٍ ما، وقد تُعِين تلك الملاحظة مستر أترسون على رَسْم ما يتَّخذه من إجراءاتٍ لاحقة.

وقال أترسون: «أمرٌ مُحزِن .. هذا الذي حَدَث للسير دانفرس.»

وردَّ جيست قائلًا: «حقًّا يا سيدي. لقد أثار استياء الرأي العام إلى حدٍّ كبير. كان الرجل مخبولًا بطبيعة الحال.»

وأجابه أترسون قائلًا: «أودُّ أن أسمع رأيك في ذلك. معي وثيقةٌ مكتوبة بخطِّ يده، ولْيكن هذا سرًّا بيننا، إذ لا أكاد أدري ما أفعل بشأنها، فالأمر مُروِّع مهما نُحسن الظنَّ بها. ولكن تفضَّل: ها هي ذي! تقع في دائرة اختصاصك؛ خطاب بخطِّ يدِ القاتل!»

وبرقت عينا جيست، وجلس من فوره وانكبَّ بحماسة على دراستها، ثم قال: «لا يا سيدي! ليس مجنونًا، ولكن الخط غريب.»

وأضاف المحامي: «ولا شكَّ أنَّ كاتبه بالِغ الغرابة!»

وفي تلك اللحظة دَخَل الخادم يحمل بطاقة.

وتساءل الكاتب: «هل هذه من الدكتور جيكل يا سيدي؟ أظنُّ أنني عرفت خطَّ يده. هل الموضوع شخصي يا مستر أترسون؟»

– «مجرد دعوة إلى العشاء. لماذا تسأل؟ هل تريد أن تراها؟»

– «لحظةً واحدة! شكرًا يا سيدي.» ووَضَع الكاتب الورقتين بجوار بعضهما بعضًا، وانهمك في مقارنة الخط في كلٍّ منهما بعنايةٍ شديدة، ثم قال أخيرًا وهو يعيدهما إلى المحامي: «هذا الخطُّ بالِغُ الطَّرافة.»

ومرَّت فترةُ صمتٍ قصيرة، كان مستر أترسون يُغالب فيها مشاعره، ثم قال فجأة: «لماذا قارنتَهما يا جيست؟»

وردَّ الكاتب قائلًا: «الواقع يا سيدي أنَّ التشابه فريدٌ إلى حدٍّ ما بينهما، والخط فيهما متماثلٌ من نَواحٍ كثيرة؛ والفرق يقتصر على زاويةِ ميل الحروف على السطر.»

وقال أترسون: «أمرٌ غريب .. إلى حدٍّ ما.»

وردَّ جيست قائلًا: «كما تقول .. أمرٌ غريب إلى حدٍّ ما!»

وقال الأستاذ: «ينبغي عدمُ ذِكْر هذا الخطاب لمخلوق .. كما تعرف.»

وقال الكاتب: «طبعًا يا سيدي؛ أعرف.»

ولكن ما إن اختلَى مستر أترسون بنفسه في تلك الليلة حتى وَضَع الخطاب في خِزانته وأغلَقَ بابها، حيث استقرَّت اعتبارًا من تلك اللحظة. وقال في نفسه: «يا عجبًا! هل يُقدِم هنري جيكل على تزوير خطابٍ من أجل قاتل؟» وأحسَّ بالدم يجري باردًا في عروقه.

حادثٌ عجيب للدكتور لانيون

مرَّت الأيام، وعَرَضت السلطات آلاف الجنيهات مكافأةً لِمَن يُرشدها إلى قاتل السير دانفرس؛ إذ استاء الجمهور من مقتله باعتباره إساءةً إلى الجميع، ولكن مستر هايد كان قد اختفى تمامًا، ولم تَعُد الشُّرطة تعلم شيئًا عنه كأنما لم يعِشْ من قبل قَط. والواقع أنَّ الشُّرطة كشفت الكثير عن ماضيه، وكان كلُّه شائنًا؛ إذ عُرِفت حكاياتٌ عن قسوة الرَّجل، وهي التي تشهد ببلادة إحساسه ونزوعه للعنف، وحكاياتٌ عن حياته الآثمة وغرابة خُلَطائه، وعن الكراهية التي يبدو أنها أحاطت بحياته كلها، وأمَّا مكان وجوده الآن فلَمْ تتردَّد همسةٌ واحدة تُفصح عنه. ومنذ اللحظة التي غادر فيها المنزل في حيِّ سوهو — في صبيحة يوم الجريمة — واسمه «مطموسٌ» على قائمة الأحياء، وأمَّا مستر أترسون فإنه بدأ بالتدريج ويومًا بعد يوم يُشفى من حُمَّى فزعه ويستعيد هدوء باله. وكان يقول في نفسه إنَّ في اختفاء مستر هايد تعويضًا كافيًا — بل أكثر من كافٍ — عن وفاة السير دانفرس؛ إذ إنَّ انحسار تأثير هايد السيِّئ آذَنَ ببدء حياةٍ جديدة للدكتور جيكل، فلقَدْ خرج من عُزلته، وجدَّد علاقاته بأصدقائه، وأصبح مرةً أخرى قادرًا على أن يحُلَّ ضيفًا على خِلَّانه، وأن يستضيفهم برُوح الصاحب الحميم، وإذا كان قد ذاع عنه الإحسان والبرُّ من قبل؛ فقد أصبح اليوم مشهورًا بالتديُّن. كما كثُرَ انشغاله، وقضاء الوقت في الهواء الطَّلْق، وفعل الخير بوجهٍ مُشرِقٍ منفرجِ الأسارير، كأنما كان يعي في أعماقه أنَّه يخدع الجميع، واستمرَّ هدوء باله أكثر من شهرين.

وفي يوم ٨ من يناير كان أترسون قد حضر حفل عشاءٍ محدود الصحبة في منزل الدكتور، وكان لانيون من بين المدعوِّين، وكانت نظرات المُضيف تنتقل بيُسرٍ من وجه أحد صديقيه إلى وجه الآخر كما كانت الحال في الماضي، أيام كان الثلاثة صحبة متماسكة. وأما في يوم ١٢ ثم في يوم ١٤ من الشهر نفسه فلَمْ يستطع المحامي مقابلة الدكتور في

منزله، بل قال له الخادم العجوز بوول: «إن الدكتور لا يبرح منزله، ولا يستقبل أحدًا.» وحاول المحامي مرةً أخرى لقاءَ صاحبه يوم ١٥ ومُنع من ذلك مرةً أخرى. ولمَّا كان قد اعتاد في الشهرين المنصرِمَين لقاء صاحبه كلَّ يوم تقريبًا؛ أحسَّ بأن عودة هذه العزلة تَرِين على فؤاده بأثقالها، وفي الليلة الخامسة دعا كاتِبه جيست للعشاء معه، وفي السادسة خرج مُيمِّمًا وجهه شطرَ منزل الدكتور لانيون.

ولم يُمنع من الدخول هنا على الأقل، لكنه عندما دَخَل أذهله ما أصاب مظهر الطبيب من تغيُّر؛ إذ استطاع أن يقرأ في وجهه ما بدا له حُكمًا بالإعدام! كان وجه الطبيب قد فقَدَ لونه الوردي وعلاه الشحوب وأصابه الهزال، وازداد صلَعُ رأسه وآثار الشيخوخة وضوحًا، ومع ذلك فلم يكن أيٌّ من هذه الدلائل على التدهور الجسدي السريع؛ هو الذي لَفَت نظر المحامي بقَدْر ما شغلته نظرات عين الطبيب وأسلوب سلوكه؛ إذ كانت تشهد فيما يبدو أنه يكابد لونًا من الرعب النفسي العميق. لم يكن من المحتمَل أن يخشى الطبيب الموت، ومع ذلك فقَدْ وجَدَ أترسون ما يُغريه بالاشتباه في هذا؛ إذ قال في نفسه: «نعم، إنه طبيب ويعرف حالته وأن أيامه في هذه الحياة معدودة، ولا بدَّ أن إلمامه بهذا أثقلُ ممَّا يستطيع أن يتحمل.» ومع ذلك فعندما أشار أترسون إلى ما اعترى مظهر صاحبه من تدهُّور؛ ردَّ عليه لانيون بنبراتٍ صارمة قائلًا: «إنَّ وفاته وشيكة.»

قال «لانيون»: «لقد أُصبتُ بصدمةٍ ولن أُشفى أبدًا منها. إنها مسألة أسابيع، وعلى أي حالٍ كانت حياتي هنيئة، وأحببتُ هذه الحياة، فعلًا يا سيدي، بل اعتدتُ أن أحبها. وأحيانًا ما أقول في نفسي: إننا لو عرفنا كلَّ شيء لازداد سرورنا بالرحيل من الدنيا.»

وقال أترسون: «جيكل مريض أيضًا. هل شاهدتَه أخيرًا؟»

ولكن التعبير على وجه لانيون اختلف، إذ رفع يدًا مرتعِشةً وقال بصوتٍ عالٍ متقطِّع النبرات: «لا أودُّ أن أرى الدكتور جيكل بعد اليوم أو أسمع شيئًا عنه، لقد انتهى كل شيء بيني وبين هذا الشخص، وأتوسَّل إليك أن تُعفيني من أيِّ إشارةٍ إلى رجلٍ أعتبره ميتًا.»

وقال أترسون: «لا تَقُل هذا!» وبعد فترة صمتٍ سأل صاحبه: «هل أستطيع أنا القيام بأيِّ شيء؟ ثلاثتنا أصدقاء من زمنٍ بعيد، ولن يُقدَّر لنا أن نحيا فنتَّخذ لأنفسنا أصحابًا آخرين.»

وردَّ لانيون قائلًا: «لا يمكن القيام بأيِّ شيء. واسأله أنت.»

وقال المحامي: «إنَّه يرفض مقابلتي.»

وكانت الإجابة: «لا يُدهشني ذلك. ربما استطعت يا أترسون يومًا ما، بعد وفاتي، أن تميِّز بين الخطأ والصواب في هذه المسألة. لا أستطيع أن أُخبرك. أمَّا إذا أردتَ الآن أن

تجلس وتحدِّثني عن أمورٍ أخرى؛ فأرجوك أن تبقى. وأمَّا إذا لم تكن قادرًا على تجنُّب هذا الموضوع الملعون؛ فأستحلفك باسم الله أن ترحل! إذ لا أستطيع احتماله!»

وما إنْ وَصَل أترسون إلى منزله، حتى جَلَس وكَتَب خطابًا إلى جيكل، يشكو فيه من مَنْعه دخول مسكنه، ويستفسر فيه عن هذه الجفوة المؤسِفة مع لانيون، وتلقَّى في اليوم التالي ردًّا مطوَّلًا، يفيض بعباراتٍ تُثير الأسى وإن كان أحيانًا ما، لا يُفصح عن مرماه الغامض؛ إذ ذَكَر جيكل أنَّ الجفوة مع لانيون مرضٌ عُضال، قائلًا: «أنا لا ألوم صديقنا القديم، لكنني أشاركه الرأي في وجوب الامتناع عن التلاقي للأبد؛ فأنا أعتزم من هذه اللحظة أن أعيش في عزلة مطلقة، وأرجوك ألَّا تُدهَش أو تتشكَّك في صداقتي إذا أغلقتُ بابي عليَّ في أوقاتٍ كثيرة حتى في وجهك أنت. وعليك أن تتحمَّل تركي أمضي في طريقي الحالك وحدي؛ فلقَدْ جَرَرتُ على نفسي عقوبةً وخطرًا لا أستطيع أن أذكر اسميهما.[1]

---

[1] «فلقَدْ جَرَرتُ على نفسي عقوبةً وخطرًا لا أستطيع أن أذكر اسميهما»: تستدعي هذه العبارة إلى ذهن القارئ، ولا شكَّ أنها استدعت إلى ذهن أترسون، صديقَ «الرجالِ الذين انحدروا للدَّرك الأسفل». اللغة المرتبطة بحالتين كانتا تشغلان أذهان الأطباء ودُعاة الأخلاق الحميدة في ذلك العصر؛ الأولى مرض الزُّهري، والثانية الآثار المَرَضية الناجمة فيما كان يفترض عن ممارسة العادة السِّرِّية. وكانت كلتاهما تمثِّل عقابًا على الانغماس في الملاذِّ الحسِّية. ومما له دلالته أن يأتي هذا الاعتراف مباشرة بعدما كَشَف الطبيب عنه مِن علمٍ بسرٍّ رهيبٍ يخصُّ الدكتور جيكل. تُرى هل قام الدكتور جيكل بزيارته زيارةً «مهنية» كَشَف له فيها عن حالته التي «سلبتْه القوة»؟ كان الزُّهريُّ من الأمراض التي لم يكن لها علاجٌ فعال آنذاك، وكان يكتنفه الغموض والصمت. كان من المحتمل ألَّا تظهر أُولى أعراضه إلا بعد سنوات من العدوى، بل ربما ظلَّت كامنة ثم عادت في الشيخوخة. ويعلِّق أترسون على هذا فيما بعد قائلًا: «من الواضح أن جيكل أُصيب بمرض من الأمراض التي تعذِّب صاحبها وتشوِّهه، وهو ما يفسِّر في تقديري تغيُّر نبرات صوته، ويفسِّر وَضْع القناع وتجنُّب أصدقائه، كما يفسِّر حِرْصه على الحصول على هذا العقار.» وهو تعليقٌ يدعم ما يوحي به النصُّ الحالي وقد يقدِّم، فيما يبدو، التأكيدَ النهائيَّ لصحة ما كان أترسون يفترضه (الفصل السابع). وكلٌّ من الزُّهري والعواقب المفترضة للعادة السرية، تنطبق عليه هذه الأوصاف؛ فالمرض الأول قد يؤدِّي إلى تشويهٍ فظيع للمصاب به. وكان الناس يزعمون أن الأخير يجرُّ على ممارِسه عواقب وخِيمةً قد تفوق ذلك التشويه. وسوف أُورد هنا خاتمة الوصف الذي أفضِّله لمثل هذه الحالة؛ يقول الوصف إنَّ المصاب «يشعر في قَفَاه بآلامٍ يبلغ من عنفها أن يَصدر عنه في العادة عواءٌ بدلًا من الصراخ .. سمعتُ بحالته وقمت بزيارته فوجدت أنَّ الراقد فوق القشِّ أقرب إلى الجثة التي تئِنُّ وتتأوَّه منه إلى الكائن الحي، وكان نحيلًا شاحبًا قذرًا يزفر روائح مُعدية .. [كان قد أصبح] كائنًا أدنى كثيرًا من الوحوش،

فإذا كنتُ كبير الخطاة فأنا كبير المكابِدين أيضًا. وما خَطَر ببالي قَط قبل الآن أنَّ بهذه الأرض مكانًا يلقَى فيه المرء ضروبًا من المكابدة وألوان الرعب التي تكسر الهمَّة على هذا النحو. فإنْ أردتَ تخفيف وطأة مصيري يا أترسون؛ فما عليك إلا أن تحترم صمتي.» واندهش أترسون وقال في نفسه: «إن التأثير السيئ الذي كان يمارسه هايد قد انحسر، وعاد الدكتور لأداء مهامِّه القديمة واستأنف علاقات وِداده السالفة، وكان المستقبل منذ أسبوعٍ واحد بسَّامًا يوحي ببشائر شيخوخةٍ هنيئةٍ مُكرَّمة، فإذا بالصداقة وهدوء البال بل مجرى حياة الدكتور كلها يتحطَّم في لحظةٍ واحدة.» كان هذا التغيير الكبير مباغِتًا إلى الحدِّ الذي يَشِي بالجنون، ولكن مسلك لانيون وأقواله تؤكِّد وجود أسبابٍ أعمق لمَا حَدَث.

وبعد أسبوع أصبح الدكتور لانيون طريح الفراش، وتُوفِّي قبل انقضاء أسبوعين. وفي الليلة التالية لتشييع الجنازة التي أحزنت أترسون حزنًا شديدًا، أغلق المحامي باب غرفةِ عمَلِه عليه وجلس في ضوء شمعةٍ حزينة، وأخرج ظرفًا وضَعَه أمامه، وكان العنوان مكتوبًا عليه بخط اليد، وعليه خاتم الشمع الخاص بصديقه العزيز، كان عليه كلامٌ مكتوبٌ بحروفٍ كبيرة تؤكِّد أهميته، ويقول: «خاص: يصل إلى يدِ ج. ج. أترسون وحده، فإذا تُوفِّي قبل وفاتي يجب إحراقه من دون قراءته.» وهو ما جَعَل المحامي يخاف الاطلاع على مضمون الخطاب، قائلًا في نفسه: «لقد دفنت صديقًا لي اليوم، فهل يكلِّفني هذا الخطاب صديقًا آخر؟» لكنه استنكر خوفه باعتباره خيانةً وفضَّ الخاتم الشمعي؛ فوجد في داخل الظرف ظرفًا آخر مغلقًا بخاتمٍ شمعي مثل الأول وعلى غلافه عبارة تقول: «لا يُفتح إلا بعد وفاة الدكتور جيكل أو اختفائه.» لم يصدِّق أترسون عينيه. نعم! كانت الكلمة هي «اختفاء». ها هي ذي فكرة الاختفاء وها هو ذا اسم الدكتور جيكل يعودان معًا بعد أن طالَعهما أول مرة في الوصية الخرقاء التي أعادها من مُدةٍ طويلة إلى صاحبها.

ومن المُحال تصوُّر منظره المفزِع، بل يصعب على المرء أن يدرك أنه كان ينتمي يومًا إلى النوع الإنساني» (حالة ل. د.، والأصل في كتاب «العادة السرية» الذي وضعه تيسو (١٧٦٠م)، ولكن ثلاثة كُتَّاب آخرين على الأقل اقتبسوه في القرن التاسع عشر). وكانت أنواع «العلاج» لكلٍّ من هذَين (فالأول مرضٌ حقيقي والآخر مرضٌ وهمي، وربما كان الناس يخلطون بينه وبين الأول) تتخذ شكل العقارات، فالزئبق ويوديد البوتاسيوم للزهري، وأدويةٌ مصرَّحٌ بها ويبيعُها الأطباء الدجَّالون أنفسهم، الذين كانوا يُلقون الرعب في قلوب مرضاهم، للأخير. وحِرصُ جيكل على العثور على العقَّار وعدم الكشف عن وجهه للناس يتَّفق مع هذا النسق.

ولكن هذه الفكرة كان من ورائها في الوصية المَكْر السيئ للرَّجل المدعوِّ هايد، وكانت قد وُضعت في الوصية لتحقيق غرضٍ واضحٍ بَشِع. أمَّا الآن فهي واردة في كلام خَطَّته يدُ لانيون، فماذا عساها أن تعني؟ وشَعَر الذي أصبح وصيًّا مؤتمَنًا على الخطاب بفضولٍ عارمٍ كاد يدفعه إلى تجاهُل الحظر والغوص في أعماق هذه الأسرار، ولكن شَرَف المهنة وإخلاصه لصديق المتوفَّى؛ كانا يمثِّلان التزامَين صارمَين، وهكذا رقدت الأوراق بربطتها في أعمق زاوية من زوايا خِزانته الخاصة.

قد ينجح المرء في كَبْح جماح فضوله، ولكن ذلك لا يعني قَهْره والانتصار عليه، ومن المشكوك فيه أنَّ أترسون ظَل منذ ذلك اليوم يَنشد صحبة صديقه الذي ما زال في قيد الحياة بالحرص السابق نفسه. كان يعطف عليه في تفكيره، ولكنه كلما فكَّر فيه انتَابَه قلقٌ وخوف. والواقع أنه ذَهَب لزيارته، وربما كان رَفْض دخوله قد أراحه، بل ربما كان يشعر في قرارة نفسه أنه يفضِّل الحديث مع بوول في الحقيقة على عتبة باب المنزل، ومن حوله هواء المدينة الطليقة وأصواتها، على أن يدخل ذلك المنزل الذي قرَّر صاحبه حَبْس نَفْسه فيه فيجلس ويتكلم مع ذلك الذي اعتزل الدنيا ولم يَكتَنِه أحدٌ سِرَّه. ولم يكن لدى بوول في الواقع ما يُفضي به إلى المحامي من الأنباء الطيِّبة؛ إذ يبدو أن الطبيب قد زاد من حبْس نفسه في غرفة مكتبه فوق المختبر، أكثر من أيِّ وقت مضى، بل كان ينام فيها أحيانًا. كما كان الطبيب منحرِف المزاج بالِغ الصمت عَزوفًا عن القراءة، وبدا كأنما كان بالُه قد شغله همٌّ من الهموم، واعتاد أترسون سماع هذه الأنباء التي لا تتغير حتى قلَّل تدريجيًّا من عَددِ زياراته لصاحبه.

حادثة النافذة

تصادَفَ في أثناء نزهة مستر أترسون المعتادة يوم الأحد مع مستر إنفليد أن مرَّا من جديد بالشارع الجانبي المعهود، وعندما وصلا إلى باب المنزل البارز وقفا ليتأمَّلاه.

قال مستر إنفليد: «لقد انتهت تلك القصة على الأقل، ولن نرى مستر هايد بعد اليوم.»

وقال أترسون: «أرجو ذلك. هل ذكَرتَ لك أنني قابلتُه ذات يوم وشَعَرت بالنفور منه مثلك؟»

وردَّ إنفليد قائلًا: «من المُحال أن تراه ولا تنفر منه. وبالمناسبة، لا بدَّ أنك ظننتني مغفَّلًا لأنني لم أكن أعرف أنَّ هذا بابٌ خلفيٌّ لمنزل الدكتور جيكل! وكان اكتشافي ذلك يرجع إلى حدٍّ ما لخطأٍ من جانِبك.»

وقال أترسون: «تقول إنك اكتشفت ذلك فعلًا؟ إذن فلْندخل الفِناء وننظر إلى النوافذ. والواقع أنني قلِقٌ على جيكل المسكين، وأشعر أنَّ وجود صديقٍ له، حتى هنا في الخارج، قد يفيده.»

كان البرد شديدًا في الفِناء وتَشيع فيه بعض الرطوبة وكانت أطياف الشَّفَق تغشاه، حتى وإنْ كانت السُّحب العالية في كَبِد السماء ما زالت تغمرها أضواء الغروب. وكانت النافذة الوسطى بين النوافذ الثلاث نصْفَ مفتوحة، وشاهَدَ أترسون صديقه جيكل جالسًا بالقرب منها، يتنسَّم الهواء بوجهٍ علاه حزنٌ لا حدَّ له، كأنه سجينٌ حزين.

وهَتَف أترسون: «عجبًا! جيكل! أرجو أن تكون أحسن حالًا!»

وردَّ الدكتور جيكل بنبراتٍ تنمُّ عن الضِّيق: «لديَّ اكتئابٌ يا أترسون. لديَّ اكتئاب شديد. لكن هذه الحال لن تطول، والحمد لله.»

وقال المحامي: «إنك تَلزم دارك أكثر ممَّا ينبغي. لا بدَّ أن تخرج حتى تنشط دورتك الدموية مثلما أفعل أنا وإنفليد. هذا ابن عمِّي مستر إنفليد يا دكتور جيكل. تعالَ الآن. خذْ قبَّعتك وسرْ معنا قليلًا.»

وتأوَّه الآخر قائلًا: «أنت بالغُ الكرم! لكَمْ أودُّ أنْ أصحبكما ولكن لا! لا! لا! ذاك مُحالٌ قَطعًا! لا أجرؤ على ذلك. لكنني يا أترسون سعدتُ كثيرًا برؤيتك. وقد سررتَني غاية السرور. كنت أودُّ أن أدعوك مع مستر إنفليد للصعود ولكن المكان فعلًا غير لائق.»

وقال المحامي بنبراتٍ تنمُّ عن طِيبة قلبه: «لا بأس إذن! خيرُ ما نفعل أن نظلَّ هنا في الفِناء ونحدِّثك من حيث نقف.»

وابتسم الطبيب قائلًا: «ذلك على وجه الدقَّة ما كنتُ سأقترحه.» لكنه ما إن نَطَق تلك الكلمات حتى اختفت البسمة من وجهه، وحلَّ محلَّها تعبير عن الرعب الشديد واليأس البالغ إلى الحدِّ الذي جمَّد الدمَ في عروق السيدَين الواقفَين تحت النافذة. لم يَلمَحا ذلك التعبير إلا لحظةً عابرة؛ إذ سرعان ما أُغلقت النافذة، ولكن تلك اللحظة كانت كافية، فدارا وغادرا الفِناء دون أن يقولا كلمةً واحدة. وظلَّا صامتَين وهما يقطعان الشارع الجانبي، وعندما بلغا شارعًا كبيرًا مجاوِرًا لا يخلو من حركة الأحياء حتى في أيام الآحاد؛ التفتَ مستر أترسون أخيرًا ونَظَر إلى صاحبه. كان الشحوب يعلو الوجهَين، والرعب في عينَي الأول يستجيب للرعب في عينَي الثاني.

وقال مستر أترسون: «يغفر الله لنا! يغفر الله لنا!»

ولم يفعل مستر إنفليد إلا أن أومَأَ برأسه بوقارٍ شديد، وعاد للسير مرةً أخرى في صمت.

الليلة الأخيرة

كان مستر أترسون جالسًا بجوار المدفأة ذات مساءٍ بعد العشاء عندما فُوجئ بزيارةٍ من بوول.

وصاح أترسون: «يا إلهي! ماذا أتى بك يا بوول؟» ونَظَر نظرةً ثانية إليه، وقال: «ما خطبك؟ هل الطبيب مريض؟»

وقال الرجل: «وَقَع ما يسوء يا مستر أترسون.»

وقال المحامي: «اجلس! اشرب هذا القدح من النبيذ! والآن، لا تتعجَّل، وقلْ لي بوضوحٍ ماذا تريد؟»

وأجاب بوول: «تعرِفُ مسلك الطبيب يا سيدي، وكيف يَحبس نَفْسه. وها هو ذا قد حبس نَفْسه مرةً أخرى في غرفة المكتب، ولا يروق لي ذلك! بل أُقسم بحياتي أنه لا يروق لي! والواقع يا مستر أترسون أنني خائف.»

وقال المحامي: «اسمع أيها الرجل الطيب .. أَوضِحْ ما تقول؛ ما الذي يخيفك؟»

وردَّ بوول، مُصرًّا على تجاهُل السؤال: «لقد انتابني الخوف نحو أسبوع كامل. ولم أعُدْ قادرًا على التحمُّل.»

كان مظهر الرجل يؤكِّد صحة أقواله؛ إذ ازدادت حاله سوءًا، ولم ينظر مباشرةً في وجه الطبيب باستثناء اللحظة الأولى التي أعلن فيها عن خوفه. بل إنه ظلَّ جالسًا وقدح النبيذ على ركبته لم يقربه، وعيناه تحدِّقان في رُكنٍ من أركان أرضيَّة الغرفة. وقال مرةً أخرى: «لم أعُدْ قادرًا على التحمُّل.»

وقال المحامي: «اسمع يا بوول! أُدرك أن لديك سببًا وجيهًا. وأُدرك أن شيئًا بالِغ السوء قد وَقَع. حاولْ أن تقول لي ما هذا الشيء.»

وقال بوول في صوتٍ أجش: «أظنُّ أنه قد وقعتْ جريمة!»

وصاح المحامي: «جريمة؟» كانت الكلمة قد أرعبتْه رعبًا شديدًا وأتى رعبُه بضِيقِ صدرٍ بالِغ، فقال: «أيُّ جريمة؟ ماذا يعني هذا الرجل؟»

وأجاب بوول: «لا أجرؤ على الإفصاح. ولكن هل تتفضَّل بالقُدوم معي حتى ترى بنفسك؟»

وأمَّا إجابة المستر أترسون فكانت أن نَهَض وأَخَذ قبعته ومعطفه، لكنه لاحَظَ بدهشةٍ ما بدا على وجه القهرمان من راحةٍ شديدة، ولاحَظَ بدهشةٍ أيضًا أنَّ الرجل أعاد قدح النبيذ إلى المائدة دون أن يَقربه وهو يسير خلف المحامي.

كانت ليلةً من ليالي شهر مارس العاصفة الباردة، وكان القمر شاحبًا يستلقي على ظَهره كأنما أمالتْه الرياح، وفي الجوِّ سحائب متناثرةٌ نسيجها بالِغ الرهافة والشفافية. وكانت شدَّة الريح تجعل التحادُث عسيرًا وتدفع بالدم إلى الوجوه. بل يبدو أنها أخلت الشوارع من المارَّة، إذ قال مستر أترسون في نفسه إنه لم يشهد في حياته ذلك الحي في لندن خاليًا من الناس إلى هذا الحد. وكان يتمنَّى لو اختلف الحال، إذ لم يسبق له أن أدرك في نفسه تلك الرغبة العارمة في أن يرى ويَلمس إخوانه من البَشَر، فلقَدْ عجز على الرغم من جهوده المضنية عن إقصاء الفكرة التي غلبتْه بأنَّ كارثةً ما توشك أن تقع. وعندما وصلا إلى الميدان، وجدا الريح تعصف والغبار مُثارًا وفروع الشجر النحيلة في الحديقة تضرب الأسوار كالسياط اللاذعة. وكان بوول يسير أمام المحامي بخطوةٍ أو خطوتين، وعندما دخلا الميدان توقَّف بوول وسط الرصيف، وعلى الرغم من برودة الجوِّ خَلَع قبعته ومَسَح جبينه بمنديل أحمر. ولكنه لم يكن يمسح العَرَق الناجم عن سرعته في السير، بل العَرَق المتفصِّد من عذابٍ خانِق، فلقَدْ غاضَ لون وجهه، وعندما تكلَّم خرج صوته أجشَّ متهدِّجًا.

قال بوول: «ها نحن قد وصلنا يا سيدي. وأسأل الله ألَّا يكون قد وقع مكروه.»

وقال المحامي: «آمين، يا بوول!»

وعندها طَرَق الخادم الباب بحذرٍ شديد، فَفُتح الباب وإن كان لا يزال مربوطًا بسلسلة، وجاء صوتٌ من الداخل يقول: «أهذا أنت يا بوول؟»

وقال بوول: «لا تنزعج! افتح الباب!»

وعندما دخلا القاعة كانت الأضواء تغمرها، والنار في المدفأة على أشدِّها، وحولها الْتف الخَدَم جميعًا، رجالًا ونساءً، كقطيعٍ من الغنم. وعندما شاهدتْ خادمة المنزل مستر

أترسون جعلتْ تُنَهنِه نهنهةً كالنشيج، وأهرعت الطاهية وهي تصيح: «الحمد لله! جاء مستر أترسون!»، وتقدَّمت من المحامي كأنها تريد معانَقتَه.

وقال المحامي بنبراتٍ تنِمُّ عن ضِيق صدره: «عجبًا! كيف اجتمعتم هنا؟ لا يصحُّ ذلك، ولن يرضى سيِّدكم عن ذلك.»

وقال بوول: «إنهم خائفون جميعًا!»

وساد سكونٌ لا يَشِي بشيءٍ بعد ذلك، فلم يعترض أحد، ولم يُسمع إلا صوت الخادمة الذي علا وهي تبكي بكاءً مُرًّا.

وصاح بوول: «أمسكي لسانك!» بنبراتٍ قاسية تشهد بأنَّ أعصابه محطَّمة، وعندما ارتفع نُواح الفتاة فجأةً؛ كان الجميع قد اتَّجهوا إلى الباب الداخلي وقد ارتسم على وجوههم ما يدلُّ على توقُّع حدثٍ رهيب، واستأنف القهرمان حديثه قائلًا للخادم المسئول عن السكاكين: «أحضر لي شمعةً وسوف ننتهي من هذا الأمر فورًا.» ثم رجا مستر أترسون أن يَتبعه، وسار أمامه متَّجهًا إلى الحديقة الخلفية.

وقال بوول: «هيا يا سيدي! أرجوك أن تتقدَّم بهدوءٍ شديد، فأنا أريدك أن تسمع لا أن يسمعك أحدٌ. كما أرجوك يا سيدي .. إذا تصادَفَ أن طُلب منك الدخول فلا تدخل.»

وأفلتتْ أعصابُ مستر أترسون عندما سمِعَ نهاية الجملة غير المتوقَّعة حتى كاد يفقد توازنه، ولكنه استعاد شجاعته وسار خلفَ القهرمان إلى مبنى المختبر، وعبْرَ غرفة العمليات الجراحية التي كانت حافلةً بصناديق الشحن والزجاجات، إلى أسفل الدَّرَج. وهنا أشار بوول بيده إليه بأن ينتحي جانبًا ويُصغي، في الوقت الذي وضع بوول الشمعة في مكانها، وبدا أنه يستجمع أطراف عزيمته وهو يصعد الدرج، ويطرُق — بيدٍ مرتعِشة — الجُوخ الأحمر الذي يكسو باب غرفة المكتب.

وقال بوول: «هذا مستر أترسون يا سيدي يريد أن يقابلك.» وكان في أثناء ذلك يشير بيده إشارةً حاسمةً بأنْ يُنصت.

وجاء الصوت من الداخل يقول بنبراتِ الشكوى: «قلْ له لا أستطيع مقابلة أحد.»

وقال بوول بنبرةٍ تشبه نبرة الانتصار: «شكرًا يا سيدي.» ثم رَفَع الشمعة في يده واصطحب مستر أترسون عائدَين عبر الفِناء فدخلا المطبخ حيث كانت النار قد انطفأت والخنافس تتواثب على الأرضية.

وحدَّق بوول في عينَي مستر أترسون وهو يسأله: «هل كان هذا صوت سيدي؟»

وأجاب المحامي: «يبدو أنه تغيَّر كثيرًا.» وكان وجهه قد علاه شحوبٌ بالِغ، لكنه تبادَلَ النظرات مع بوول.

وقال القهرمان: «تغيَّر؟ نعم! أظنُّ ذلك فعلًا! هل قضيتُ عشرين عامًا في منزل هذا الرجل، ثم يخدعني مَن يحاكي صوته؟ كلَّا يا سيدي! لقد قُتل سيدي .. قُتل منذ ثمانية أيام عندما سمعناه يستغيث عاليًا باسم الله. ومَن ذا الذي تراه في الغرفة بدلًا منه؟ ولماذا يمكث هذا الشخص فيها؟ إنه لأمرٌ واضحٌ لأقصى حدٍّ يا مستر أترسون!»

وقال أترسون وهو يعضُّ إصبعه: «هذه حكايةٌ غريبة جدًّا يا بوول. بل قصة تقوم على الوهم يا صاحبي. فَلْنفترض وقوع ما تفترضه .. أعني فلنفترض أن الدكتور جيكل قد .. قُتل! فما الذي يدفع القاتل إلى البقاء؟ القصة واهية، ولا يقبلها العقل.»

فقال بوول: «الواقع يا مستر أترسون أنك رجل صعب الإقناع، لكنني سأقنعك. لا بدَّ أن تعرف أنَّ ذلك الموجود في غرفة المكتب، مهما يكن، ظلَّ طول الأسبوع الماضي يصرخ ليلًا ونهارًا في طلبِ دواءٍ من نوعٍ معيَّن، ولم يستطع الحصول على ما يرضيه. كان من عادته أحيانًا — أقصد من عادة سيدي — أن يكتب أوامره على ورقةٍ ثم يلقي بها على الدَّرَج. لم نكن نتلقَّى طيلة هذا الأسبوع المنصرِم سوى تلك الأوراق، والباب ما زال مغلَقًا، حتى إننا كنا نترك له الوجبات على العتبة حتى يُدْخلها خلسةً عندما يذهب الجميع. والواقع يا سيدي أن الأوامر والشكاوى كانت تَصدر كلَّ يوم، بل مرتين أو ثلاث مرات في اليوم نفسه، وكان يأمرني بالذهاب مسرعًا إلى جميع الصيدليات التي تبيع بالجُمْلة في المدينة. وكلَّما عُدْت بالدواء في يدي، وجدتُ ورقةً أخرى يأمرني فيها بإعادته بسبب عدم نقائه، وبأن أذهب إلى صيدلية أخرى. إنه في حاجة ماسَّة إلى هذا الدواء يا سيدي، مهما يكن الغرض منه.»

وسأله مستر أترسون: «هل لديك ورقةٌ من هذه الأوراق؟»

ودسَّ بوول يده في جيبه وأخرج منه ورقةً مجعَّدةً قدَّمها إلى المحامي الذي قرَّبها من الشمعة وانكبَّ عليها يفحصها بدقَّة. كان المكتوب فيها ما يلي: «تحيات الدكتور جيكل إلى أصحاب شركة «مو»، ويؤكِّد لهم أنَّ العيِّنة الأخيرة لم تكن نقيةً، ولا تَصلح إطلاقًا لتحقيق غرضه الحالي. وكان الدكتور جيكل قد اشترى في عام – ١٨م كميةً كبيرةً من هذه الشركة، وهو يرجوهم الآن أن يبحثوا بأكثر قَدرٍ من العناية والحرص، فإذا عثروا على أيِّ مقدارٍ بقي عندهم من هذا الصنف فليرسلوه إليه من فورهم، مهما يكُن الثَّمَن. والدكتور جيكل يُولِي هذا الأمر أهميةً يصعب وصفها.»، وحتى هذه الكلمات كانت الرسالة مكتوبة

بخطٍّ ينمُّ عن رَباطة جأشٍ واضحة، ولكنَّ الخطَّ اختلف فجأةً ليوحي بانفلات مشاعر الكاتب، فتناثرت الحروف في الكلمات التي أضافها هنا وهي: «أستحلِفكم بالله أن تعثروا لي على مقدارٍ ما من الصنف القديم.»

وقال مستر أترسون: «هذه رسالةٌ غريبة.» ثم أضاف بنبراتٍ حادَّة: «كيف سمحتَ لنفسك أن تفتحها؟»

وردَّ بوول قائلًا: «لقد أغضبتُ المسئول في شركة «مو» غضبًا شديدًا فألقى بها في وجهي كأنما كانت من القاذورات.»

واستأنف المحامي حديثه قائلًا: «أنت واثقٌ أنَّ هذا خطُّ يد الطبيب دون شك؟»

وقال الخادم بنبراتٍ تنمُّ عن استيائه: «رأيتُ أنه يشبه خطَّه.» ثم أضاف بنبراتٍ مختلفة: «ولكنَّ خطَّ اليد غير مُهم؛ إذ إنني شاهدتُه!»

وكرر أترسون العبارة دهِشًا: «شاهدتَه؟! وكيف كان ذلك؟»

وقال بوول: «هذا بيت القصيد! سوف أحكي ما حَدَث؛ دخلتُ غرفة العمليات فجأةً من الحديقة، ويبدو أنه انفلت من غرفة المكتب ليبحث عن هذا الدواء أو ذلك الشيء مهما يكُن؛ إذ كان باب غرفة المكتب مفتوحًا، وكان هو في الطرف الأقصى من غرفة العمليات منهمِكًا في البحث بين الصناديق. ورَفَع نظرَهُ إليَّ عندما دخلتُ، وندَّ عنه ما يشبه الصرخة، ثم أُهرع صاعدًا الدَّرَج فدخل غرفة المكتب. لم أكن قد شاهدتُه سوى دقيقةٍ واحدة، ولكن شَعْر رأسي انتصب كالأشواك. أسألك يا سيدي: لو كان سيدي فلماذا صَرَخ كالفأر المذعور وهَرَب مني؟ لقد خدمتُه فترةً طويلة. ثم إنه ...» وتوقَّف الرجل عن الحديث ومَسَح وجهه بيده.

وقال مستر أترسون: «هذه جميعًا أمورٌ بالغة الغرابة، ولكنني أظنُّ أنني بدأتُ ألمح ضوء النهار! الواضح يا بوول أن سيدك أُصيب بمرضٍ من الأمراض التي تعذِّب وتشوِّه صاحبها،[١] وهو ما يفسِّر في تقديري تغيُّر نبراتِ صوته، ويفسِّر وَضْع القناع وتجنُّب أصدقائه، كما يفسِّر حرصه على العثور على ذلك العَقَّار الذي يعلِّق عليه المسكين بعض الأمل في الشفاء آخرَ الأمر. أدعو الله ألَّا يخيِّب أمله! هذا تفسيري، وهو يثير الأسى قَطعًا يا بوول، ويسوءُني التفكير فيه، ولكنه تفسيرٌ واضحٌ وطبيعي، وهو مترابِطُ الحلقات، ويعفينا من أيِّ فزعٍ مبالَغٍ فيه.»

[١] «مرض من الأمراض التي تعذِّب وتشوِّه صاحبها» (انظر الهامش رقم ١ في القسم السابق).

وقال القهرمان وقد بدأتْ بقَعٌ من الشحوب تكسو وجهه: «لم يكُنْ ذلك الرجل سيدي! هذه هي الحقيقة. فإنَّ سيدي ...» — وهنا تلفَّت حوله وبدأ يهمس — «رجلٌ طويل القامة متين البِنية، وأمَّا الذي شاهدتُه فكان أقرب إلى الأقزام.» وحاول أترسون الاعتراض فصاح بوول قائلًا: «أتظنُّ أنني لا أعرف سيدي بعد عشرين عامًا؟ هل تظنُّ أنني لا أعرف إلى أين يصل رأسُه أمام باب غرفة المكتب حيث اعتدتُ رؤيته صباح كلِّ يوم من أيام حياتي؟ لا يا سيدي! ذلك الرجل ذو القناع لم يكُن الدكتور جيكل بالقَطع! الله أعلم بمَنْ كان، لكنه لم يكُنْ قطعًا الدكتور جيكل. وأُومِن في أعماق فؤادي أنَّ جريمة قتلٍ قد ارتُكِبَت.»

وأجاب المحامي: «إنْ كنتَ تزعم هذا فواجبي يقضي بالتثبُّت. وعلى الرغم من حرصي الشديد على ألَّا أجرح مشاعر سيدك، وحيرتي الشديدة إزاء هذه الرسالة التي تُثبت فيما يبدو أنه لا يزال حيًّا؛ فإني أرى من واجبي أن أقتحم هذا الباب عَنْوة.»

وهتف الساقي: «عينُ الصواب يا مستر أترسون!»

وعاد أترسون يقول: «والآن يأتي سؤالٌ آخر: مَن الذي يقتحمه؟»

وجاءته الإجابة الجسورة: «أنا وأنت طبعًا يا سيدي!»

فردَّ المحامي قائلًا: «أحسنتَ وأصبت! ومهما تكُن العاقبة فسوف أجتهد حتى لا تُصاب بسوء.»

وواصل بوول حديثه قائلًا: «في غرفة العمليات بَلطَة .. ولك أن تستخدم المِسْعَر الحديدي في المطبخ.»

وعندما أمسك المحامي ذلك القضيب الحديدي الثقيل ورَفَع تلك الأداة الساذجة في يده بحيث يضمن اتزانها؛ رَفَع بصره إلى بوول قائلًا: «هل تعلم أننا — أنا وأنت — سوف نعرِّض أنفسنا لبعض الخطر؟»

وقال القهرمان: «قد تكون على صواب يا سيدي.»

فقال الآخر: «الأحرى بنا إذن أن نلتزم الصراحة؛ إذ لم يبُحْ أيُّنا للآخر بما يدور في ذهنه! فلْنتصارح إذن: هل عرفتَ الرجل المقنَّع الذي شاهدتَه؟»

وجاءته الإجابة: «الواقع يا سيدي أن الأمر جرى بسرعةٍ شديدة، وكان ذلك المخلوق منحنيًا إلى الحدِّ الذي لم يسمح لي بالتأكُّد من شخصيته. أمَّا إن كنتَ تعني هل هو المستر هايد؛ فأقول: نعم! أظنُّ أنه كان ذلك الرجل. كان يوازيه في الجِرم وخفَّة الحركة، أضِف إلى ذلك أنه لا يستطيع سواه أن يدخل من باب المختبر! ولعلَّك لم تنسَ يا سيدي أنه كان

يحتفظ بمفتاح ذلك الباب في وقت الجريمة. والأمر لا يقتصر على ذلك. قلْ لي يا مستر أترسون: هل سَبَق لك أن قابلتَ مستر هايد؟»

وقال المحامي: «نعم، تحدَّثتُ معه ذات يوم.»

«إذن فأنت تعلم مثلنا جميعًا أنَّ ذلك الشخص كان غريبًا غرابةً تصدم المشاعر، لا أعرف التعبير الصحيح عن ذلك يا سيدي سوى أن أقول إنه شعورٌ بالصدمة في النخاع كأنَّها البرد الشديد أو صعقةُ القُشَعريرة.»

وقال أترسون: «أُصارحك بأني شعرتُ بشيء ممَّا تَصِف.»

وردَّ بوول قائلًا: «هذا صحيحٌ يا سيدي. والواقع أن ذلك الشخص المقنَّع عندما وثَبَ مثل القرد بين قوارير المواد الكيماوية ثم أُهرع إلى داخل غرفة المكتب؛ أحسستُ كأنما سَرَى في نخاعي بردٌ مثل الجليد. أعرف أن هذا ليس دليلًا علميًّا، فقد تعلمتُ ما يكفي لأُدرك هذا، ولكن لكل إنسانٍ مشاعره، وأُقسم لك بالكتاب المقدَّس إنَّه كان مستر هايد!»

وقال المحامي: «نعم نعم! أخشى أن يكون الأمر كذلك، فالشرُّ قد نشأ مع الأسف من ارتباط الرَّجلَين، بل كان من المحتَّم أن هنري المسكين قد قُتل، وأعتقد أنَّ قاتله لا يزال (لغرضٍ ما لا يعلمه إلا الله) مختبئًا في غرفة القتيل. فَلْنأخذ بثَأْره إذن. ادعُ برادشو.»

واستجاب الخادم للنداء فَجاءَ بوجهٍ بالِغ الشحوب وفي توتُّرٍ شديد.

وقال المحامي: «تمالَكْ أعصابَك يا برادشو! أدري أنَّ هذا التوتُّر قد أثَّر فيكم جميعًا، لكننا قد عقَدْنا العزم على الانتهاء منه الآن؛ إذ قرَّرنا أنا وبوول أن نقتحم غرفة المكتب عَنوة. فإذا لم نجِدْ ما يسوء؛ فلديَّ من المكانة ما يُؤهِّلني لتحمُّل المسئولية. وإذا كان قد وقع فعلًا أمرٌ «فظيع»، أو إذا حاوَلَ أيُّ مُذنِبٍ الهروب من الباب الخلفي؛ يجب أن تذهب أنت مع الغلام وفي يدِ كلٍّ منكما عصًا غليظة، وأن تلتزما بمَوقِعكما عند باب المختبَر. وسوف نُمهِلكما عشر دقائق حتى تَصِلا وتَشغَلا مَوقِعكما.»

وعندما انصرف برادشو، نَظَر المحامي في ساعة معصمه، ثم قال: «ودَعْنا الآن يا بوول نَشغَل موقعنا.» وحَمَل المِسعَر الحديدي تحت إبطِه، وتقدَّم يَتبَعه بوول إلى الفِناء. كان السحاب قد ساقَتْه الريح فغطَّى وجه القمر فسَادَ الظلام، وكانت الريح تهبُّ في نوباتٍ متقطِّعة في داخل «المَنوَر» العميق وسط المبنى وتتلاعب بلَهَب الشمعة يَمنَةً ويَسرَةً في أثناء سيرهما، حتى وصَلَا إلى غرفة العمليات التي احتمَيَا فيها من الريح وجلَسَا ينتظران في صمت. كانت همهمات لندن تتردَّد في مهابةٍ في كل مكان من بعيد، وأمَّا

بالقرب منهما فلَمْ يكُن يقطع الصمت إلا صوتُ وَقْع أقدامِ شخصٍ يمشي رائحًا غاديًا فوق أرضية غرفة المكتب.

وهمس بوول قائلًا: «لا يتوقف عن السَّير هكذا طول النهار يا سيدي، بل جانبًا كبيرًا من الليل، إلا حين تصِلُ عيِّنةٌ جديدة من الصيدلاني. فعلًا! إنَّ ضمير الأثيم لا يأتيه بالراحة! فعلًا يا سيدي! إنَّ كل خطوة يخطوها تنمُّ عن إراقة دمٍ دون وجهِ حق! ولكن أنصتْ من جديد، زدْ من اقترابك، وأصِخْ السمع بقلبك يا مستر أترسون! قل لي: هل هذا وَقْع أقدام الطبيب؟»

كان وَقْع الأقدام خفيفًا وغير منتظم، ويوحي بتأرجُحٍ معيَّن، كما كان يتَّسم بالبطء الشديد، ويختلف كثيرًا عن وَقْع خطوات هنري جيكل الثقيلة ذات الصرير. وتأوَّه أترسون قائلًا: «ألا يُحدث أبدًا سوى ذلك؟»

وأومَأَ بوول بالإيجاب، ثم قال: «سمعتُه ذات مرة يبكي!»

وقال المحامي: «يبكي؟ كيف؟» وأحسَّ برِعدةِ رُعبٍ باردةٍ مفاجئة.

وقال القهرمان: «كان يبكي كالمرأة أو كنفْسٍ معذَّبة، فمضيتُ والأمر يُثقِل قلبي حتى كِدتُ أبكي أنا أيضًا.»

وكانت الدقائق العشر قد انتهت، فأخرج بوول البَلطَة من كَومَة القشِّ الذي يُستخدم في تعبئة الأدوات، ووضَعَ الشمعة على أقرب منضدة حتى يهتديا بضوئها عند اقتحام الباب، واقتربا وقدْ أمسكا أنفاسهما من المَوقِع الذي تسير فيه الأقدامُ جَيئةً وذهابًا، دونما توقُّف، في سكون الليل.

وصاح أترسون بصوتٍ مرتفع: «جيكل! أريد أن أراك!» وصمَتَ لحظة، ولكنه لم يتلقَ إجابة. فعاد يقول: «إنِّي أُنذرك الإنذار الواجب: لقد ثارت شكوكنا ولا بدَّ أن أراك، بل سوف أراك .. إن لم يكُن بوسائلَ مشروعة، فبوسائلَ غيرِ مشروعة، وإن لم يكُن برضاك فبالقوة الغاشمة!»

وقال الصوت: «أترسون! ارحمني باسم الله!»

وصاح أترسون: «آه! ليس هذا صوت جيكل .. بل صوت هايد! فَلْنحطم الباب يا بوول!»

ورَفَع بوول البلطة فوق كتفه ثم هَوَى بها فاهتزَّ المنزل من أثَرِ الضربة، وانتفض الباب المكسوُّ بالجُوخ الأحمر فاضطرب القُفْل واضطربت المفصَّلات، وارتفعت صرخةٌ رهيبة من داخل غرفة المكتب، كأنها صوت حيوانٍ مذعور. وارتفعت البَلطَة مرةً أخرى،

فتهشَّمت الألواح الخشبية وتخلخل هيكل الباب، وتكرَّرت الضربة أربع مرات، ولكن الأخشاب كانت متينة، وقد ثبَّتتْها أيدي نجَّارينَ مَهَرة، وصمَدَ الباب حتى الضربة الخامسة، إذ انفجر القُفل وتناثرتْ أجزاؤه وسقَطَ الباب المحطَّم داخل الغرفة على السجَّادة.

كان الرجلان اللذان انتهيا من حصارهما قد أفزَعَهما الصَّخَب الذي أحدثاه والسكون الذي تلاه فتَراجَعا قليلًا، ثم شَرَعا يطلَّان على غرفة المكتب التي تجلَّت أمام أعينهما في ضوء المصباح الهادئ، فشاهدا نار المدفأة متوهِّجةً، وسَمِعا حسيس احتراق الجمر فيها، وكذلك أزيز غليان الماء في القِدر فوق المَوقِد، وكانت بعض الأدراج مفتوحة، والأوراق مصفوفة بعنايةٍ فوق منضدة العمل، كما لاحَظَا أنَّ لوازم تقديم الشاي موضوعةٌ بالقرب من المدفأة، كانت الغرفة بالغةَ السكون، وكان يمكن أن تقول إنها غرفةٌ من غُرَف لندن العادية — بل أقربها إلى الطابع العادي تلك الليلة — لولا الصوانات ذات المظهر البرَّاق الغاصَّة بالمواد الكيماوية.

وفي منتصف الغرفة تمامًا شاهدا جسَدَ رجلٍ الْتَوتْ أعضاؤه بشِدَّة وما زال يرتعش، فاقتربا منه على أطراف أصابع أقدامهما، وقَلَبَاه على ظَهْره فشاهدا وجه إدوارد هايد. كان يرتدي ملابسَ أكبرَ كثيرًا من مقاساته — ملابس تناسب مقاسات الطبيب — وعضلات وجهه ما زالت تنتفض فيما يُشبه الحياة، وإن كانت الحياة قد انتهت تمامًا، ولاحَظَ أترسون أن في يدِ هايد قارورة محطَّمة وفي الجوِّ رائحة الزِّرْنيخ النفَّاذة التي تُشبه رائحة اللوز المُر،[٢] فتأكَّد أنه ينظر إلى جثة رجلٍ منتحِر.

وقال بنبراتٍ صارمة: «وصلنا بعد فَواتِ الوقت، ولم يعُدْ في إمكاننا إنقاذه أو عقابه؛ إذ ذهب هايد ليَلقَى حسابه، ولم يَبقَ أمامنا إلا أنْ نعثر على سيدك.»

كانت غرفة العمليات تَشغَل معظم مساحة المبنى، وتحتلُّ الطابق الأرضي كله تقريبًا وأضواؤها في السقف، هذا إلى جانب غرفة المكتب المُقامَة في طابقٍ علويٍّ في الطرف الأقصى للمبنى وتطلُّ على الفِناء. وكانت غرفة العمليات تتصل بممرٍّ يؤدي إلى الشارع الجانبي، ويرتبط هذا الممرُّ بغرفة المكتب بصفٍّ من الدَّرَج المُنفصِل. وكانت بالمبنى عدة غُرَف صغيرة مُظلِمة وقَبْو فسيحٌ، قام الرجلان بفَحْصها جميعًا بكلِّ دِقَّة، وإنْ لم تكُن كل غرفة

[٢] «رائحة الزِّرْنيخ النفَّاذة التي تُشبه رائحة اللوز المُر»: هذه حقيقةٌ علمية.

تحتاج إلا إلى نظرةٍ سريعة؛ إذ كانت جميعها خالية، وكان التراب المُتساقِط من أبوابها يدلُّ على أنَّها لم تُفتح منذ عهدٍ بعيد. وكان القَبْو يغَصُّ «بالكراكيب» المُبعثَرة التي يعود معظمها إلى زمن الجرَّاح الذي كان يُقيم في المبنى قبل جيكل. لكنهما ما إنْ فتَحَا الباب حتى أَدرَكا أنَّ بحْثَهما فيه سيَذهَب عَبثًا؛ بسبب بيت العنكبوت الكامل الذي كان يسدُّ المدخل منذ سنين. لم يَعثُرا على أثرٍ للدكتور جيكل، حيًّا أو ميتًا، في أيِّ مكان.

وجعل بوول يضرب البلاط في الممرِّ بقَدَمه ويُصغي إلى الأصداء قائلًا: «لا بدَّ أنَّه مدفونٌ هنا.»

وقال أترسون: «وربما يكون قد هَرَب.» ثم اتَّجَه لفحص الباب المُوصِل إلى الشارع الجانبي؛ فوجده مُقفَلًا بالمفتاح الذي شاهَدَه الرجلانِ مُلقًى على البلاط وقدْ علاه الصدأ.

فقال المحامي: «لا يبدو أنَّ هذا يمكن استخدامه.»

وكرر بوول الكلمة في استنكار: «استخدامه؟! أَلَا ترى يا سيدي أنه مكسور؟ كأنما حطَّمه رجلٌ بقَدَمه.»

وعقَّب أترسون قائلًا: «والصدأ يعلو الكسور أيضًا.» وتبادَلَ الرجلان النظرات في خوف، ثم قال المحامي: «لا أفهم هذا يا بوول. فَلْنعُد إلى غرفة المكتب.»

وصَعِدا الدَّرَج في صمت، وانطلقا يفحصان، بدقَّةٍ أشدَّ، كلَّ ما وجداه في غرفة المكتب، وهما يُلقيان من حين إلى آخر نظراتٍ إلى الجثمان في رهبة، فوجَدَا على إحدى المناضد آثار العمل الكيماوي الذي كان الدكتور يقوم به، مثل شتَّى الأكوام الصغيرة المحسوبة بدقَّة من مِلحٍ أبيضَ معيَّن في أطباقٍ زجاجيةٍ صغيرة، كأنما كانت جزءًا من تجربةٍ حُرمَ الرَّجل التعِس من إتمامها.

وقال بوول: «هذا هو العقَّار نفسه الذي كنتُ دائمًا آتيه به.» وفي أثناء حديثه بدأ الماء في القِدر الموضوع على المَوقِد يغلي ثم فاض مُحدِثًا جَلَبةً مفزِعة.

وجعَلَهما ذلك يقتربان من المدفأة حيث كان المقعد الوثير قد وُضِع، وحيث كانت معدَّات الشاي قريبة من مِرفَق الجالس فيه، والسُّكَّر في الفنجان. وكانت على الرفِّ عدَّة كتُب، وبجوار معدَّات الشاي كتابٌ مفتوح، ودُهش أترسون حين شاهَدَ نسخةً من كتابٍ ديني كان جيكل قد أعرَبَ عن تقديره الشديد له عدَّة مَرَّات، وفي هوامشه ملاحظات بخطِّ الدكتور تتضمَّن طعنًا وتجديفًا مفزِعًا في الدين.

ووصَلَا بعد ذلك في أثناء تفتيش الغرفة إلى المِرآة الطويلة المُتأرجِحة، فنظَرَا في أعماقها فانتَابَهما الفَزَع على الرغم منهما، ولكنها كانت قدْ أُديرتْ حول محورها فلَمْ

تكشفْ إلا عن الوَهَج الوردي للنار الذي يتلاعب فوق السقف، والانعكاسات الكثيرة لضوء النار على أسطح الصوانات البرَّاقة، ووجهَيهِما الشاحبَين الخائفَين وهما يَنحَنِيان للنظر في المِرآة.

وهمَسَ بوول: «لقد شاهدتُ هذه المِرآة بعض الغرائب يا سيدي!»

وهمَسَ المحامي بالنبرات نفسها: «لا أَغرَب قطعًا منها في ذاتها!» ثم قال: «إذ ما كان جيكل ...» وأدَّى الفعل الماضي إلى فزَعِه فتوقَّف ثم تغلَّب على ضَعفه، وعاد يقول: «إذ ماذا عسى جيكل أن يفعل بها؟»

فقال بوول: «سؤالٌ وجيه!»

واتَّجها بعد ذلك إلى منضدة العمل. كان على المكتب بين الأوراق المصفوفة بعناية ظرفٌ كبيرٌ يعلوها جميعًا ويحمل اسم مستر أترسون مكتوبًا بخطِّ يدِ الطبيب. ففَتَحه المحامي فسَقَطتْ منه مرفقاتٌ عديدةٌ على أرضية الغرفة. كانت الأُولى وصيَّة فيها العبارات الغريبة نفسها التي اشتملتها الوصية القديمة التي كان المحامي قد أعادها إلى الطبيب قبل ستة أشهر، أي أنها كانت تتضمن شروط التركة في حالة الوفاة وشروط عَقْد الهِبَة في حالة الاختفاء، ولكن المحامي لاحَظَ بدهشةٍ لا تُوصف أنه بدلًا من اسم «إدوارد هايد» كتب اسم جابرييل جون أترسون! نظَرَ إلى بوول، ثم عاد ينظر إلى الورقة، وأخيرًا إلى جثة الجاني المُمدَّدة على السجادة.

وقال المحامي: «رأسي يدور! كانت الوثيقة في حَوزته طيلة الأيام السابقة، ولم يكُن لديه سببٌ لأنْ يُحبَّني، ولا بدَّ أنه غضِبَ غضبًا شديدًا لأنني حللتُ محلَّه، وعلى الرغم من ذلك لم يمزِّق الوثيقة!»

وأمسك الورقة التالية، كانت «مذكرة» موجَزةً بخطِّ الطبيب، وفي أعلاها تاريخ كتابتها. وعندما نظَرَ المحامي فيها صاح: «اسمع يا بوول! لقد كان حيًّا وموجودًا هنا اليوم! من المُحال أن يكون قد قُتل وانتهى أمره في مثل هذه الفترة الوجيزة! لا بدَّ أنه ما زال في قيد الحياة، ولا بدَّ أنه هرَبَ! ولكن لماذا يهرب؟ وكيف؟ وفي هذه الحال هل نُجازِف ونُعلن أنَّ هذه حالةُ انتحار؟ كلَّا! لا بدَّ من الحرص؛ إذ أَخشَى أننا قد نورِّط سيدك ونُوقعه في كارثةٍ باقعة.»

وسأله بوول: «لمَ لا تقرأ المكتوب؟»

فأجاب المحامي بنبراتٍ واجمة: «لأنني خائف! أدعو الله ألَّا يكون ثمَّة ما يدعو لخوفي!» قال هذا وقرَّب الورقة من عينيه فقرأ ما يلي: «عزيزي أترسون، عندما تقرأ هذا

الكلام أكون قد اختفيت. لا أستطيع أن أتنبَّأ بظروف اختفائي، لكن حَدْسي يُنبئني — إلى جانب ما يحيط بحالي الذي لا اسم له — بأنَّ النهاية مؤكدةٌ وقريبة. انطلقْ إذن فاقرأْ أولًا القصة التي قال لي لانيون إنه سوف يُعطيك إيَّاها، فإذا أردتَ أن تعرف المزيد فاقْرَأ اعتراف صديقك التعِس غير الجدير بصداقتك.»

هنري جيكل

وتساءل أترسون: «أكانت هنا وثيقةٌ ثالثةٌ مُرفَقة؟»

فقال بوول: «ها هي ذي!» وأعطاه مظروفًا ضخمًا مُغلَقًا بالشمع من عدَّة جوانب.

وضَعَ المحامي المظروف في جيبه قائلًا: «يجب أن نتكتَّم أمْرَ هذه الورقة. فإذا كان سيدك قد هرب أو تُوفي؛ فعلينا على الأقل أن نصون سمعته. الساعة الآن العاشرة، ويجب أن أعود إلى المنزل وأقرأ هاتَين الوثيقتَين في هدوء، لكنني سأعود قبل منتصف الليل حتى نستدعي الشُّرطة.»

وخرج الرجلان فأغلَقَا باب غرفة العمليات خلْفَهما، وترَكَ أترسون الخَدَم الذين تحلَّقوا من جديدٍ حول المدفأة، وانطلق مُتثاقِلًا إلى مكتبه حتى يقرأ القصتَين اللتَين سوف تكشفان وتوضِّحان هذا اللُّغز الآن.

قصة الدكتور لانيون

في اليوم التاسع من شهر يناير، أي منذ أربعة أيام، تسلَّمتُ في بريد المساء ظرفًا مسجَّلًا، والعنوان مكتوبٌ بخطِّ زميلي ورفيق الدراسة القديم هنري جيكل. وقد دُهشت كثيرًا من ذلك فلَمْ نكُن قد اعتدنا التراسل فيما بيننا، بل إنني قابلتُ الرَّجل وتناولتُ العشاء معه قبل ليلةٍ واحدة، ولم أكُن أتصوَّر أنَّ في تخاطُبنا شيئًا يبرِّر إرسال البريد مسجَّلًا. وزاد مضمون الخطاب من عَجَبي؛ إذ كان يقول:

١٠ ديسمبر – ١٨م[١]

«عزيزي لانيون .. أنت من أَقدَم أصدقائي، وعلى الرغم من اختلافنا أحيانًا حول المسائل العِلمية، فلا أستطيع أن أَذكُر أيَّ جفوة، على الأقل من جانبي، تقْطَع حَبْل المودة بيننا. ولم يمرَّ بي قَط يومٌ تقاعستُ فيه عن معونتك، ولو قلتَ لي: «إن حياتي يا جيكل، وشرفي وعقلي تعتمد عليك.» لضحَّيتُ بثروتي أو بيَدِي اليسرى لمساعدتك. والآن يا لانيون أقول إنَّ حياتي وشرفي وعقلي تحت رحمتك، وإذا خذلتَني هذه الليلة كُتِب عليَّ الضياع! وربما افترضتَ بعد هذه الديباجة أنني سوف أطلب منك ما يشينُ الشرف. فلْتكُن أنت الحَكَم.

أريدك أن تؤجِّل جميع ارتباطاتك الليلة .. نعم؛ حتى لو استُدْعِيتَ لمعالجة إمبراطور! ولتستقلَّ عربةً بالأجرة، إلَّا إذا كانت عربتك الخاصة واقفةً فعلًا لدى الباب، واحمل هذا الخطاب في يدك حتى تهتدي به، واذهب مباشرةً إلى منزلي.

---

[١] «١٠ من ديسمبر – ١٨م»: يختلف التاريخ المدوَّن على الخطاب عن التاريخ الذي يحدِّد لانيون فيه وقوع هذه الأحداث؛ أي «في اليوم التاسع من شهر يناير». ومن المحتمَل أن تكون هذه الغلطة نتيجةً للسهو، وهي إحدى الغلطات القليلة الناجمة من السرعة الشديدة التي كَتَب ستيفنسون بها هذه الحكاية.

ولقد تلقَّى بوول — الذي يقوم بعمل القهرمان عندي — أوامره منِّي، وسوف تجِدُه في انتظارك مع خبير الأقفال. وعليك بعد ذلك أن تفتح باب غرفة مكتبي بالقوة، وأن تدخلها وحدك، وتفتح الصوان المصقول الذي يحمل رقم (E) على يدك اليسرى، وأن تكسر القفل لو كان الصوان مقفولًا، وأن تُخرج منه الدُّرْج الرابع من أعلى أو الثالث من أسفل (وهو الدُّرْج نفسه) بكلِّ محتوياته كما هي على حالها. لديَّ خوفٌ رهيب من عدم إرشادك إلى الدُّرْج المقصود بسبب الهمِّ الشديد الذي يستولي على نفسي، ولكن حتى لو كنتُ قد أخطأتُ أنا فلَكَ أن تعرف الدُّرْج المقصود من محتوياته؛ وهي بعض المسحوقات، وقارورة، وكراسة. وأرجوك أن تحمل هذا الدُّرْج وتعود به معك إلى ميدان كافنديش بمحتوياته دون تغيير.

هذا هو القسم الأول من الخدمة المطلوبة، وفيما يلي القسم الثاني: إذا انطلقتَ فَورَ استلامك هذا الخطاب فسوف تعود إلى منزلك قبل منتصف الليل بمُدة طويلة، لكنني أمنحك هذا الهامش الكبير لا تحسُّبًا فقط للعوائق التي يستحيل منعها أو التنبؤ بها، بل أيضًا لأنني أفضِّل الوقت الذي يكون خَدَمُك فيه نائمين للقيام بما بقي من هذه المَهمَّة؛ إذ أرجوك أن تكون في عيادتك وحدك عند منتصف الليل، وأن تسمح بنفسك لرجلٍ سوف يقدِّم نفسه باسمي بدخول منزلك، وتعطيه الدُّرْج الذي أحضرتَه من غرفة مكتبي؛ وبهذا تكون قد نهضتَ بدورك واستحققتَ امتناني الغامر، فإذا أصررتَ على تفسير ما حَدَث فسوف تُدرك بعد خمس دقائق أن هذه الترتيبات ذات أهميةٍ قصوى، وأنك إذا أهملت القيام بأحدها، على الرغم ممَّا يبدو لك من غرابتها الشديدة، فسوف تكون قد حمَّلت ضميرك بالمسئولية عن وفاتي أو فقداني عقلي.

وعلى الرغم من ثقتي بأنَّك لن تستخِفَّ بما أُناشدك أن تفعل؛ فإن قلبي يغوص بين جوانحي ويدي ترتعد لمجرد التفكير في ذلك الاحتمال. ولتعرف أنني في هذه الساعة في مكانٍ غريب وأعاني من كربٍ أسودَ يتجاوز أيَّ خيالٍ مهما اشتَط، وإن كنتُ أدرك تمامًا أنك إن قدَّمت لي هذه الخدمات في مواعيدها المحدَّدة، فسوف تنقشع متاعبي مثل قصةٍ فَرغَتْ أحداثها. قدِّم لي هذه الخدمة يا لانيون العزيز وأنقِذْ صديقك.

هنري جيكل

ملاحظة: كنت قد اختتمتُ هذا الخطاب فعلًا فإذا بمصدر خوفٍ جديدٍ يدهمني؛ إذ تبينتُ أن البريد يمكن أن يخذلني، فلا يَصِلك هذا الخطاب إلا في صباح الغد. فإذا حَدَث هذا فقُمْ يا لانيون العزيز بالمهمة التي أطلبها في أيِّ وقتٍ يناسبك في أثناء النهار، ثم توقَّع وصول مِرسالي مرةً أخرى عند منتصف الليل. ربما يكون الوقت قد فات فعلًا عندها، فإذا مرَّت تلك الليلة ولم يحدث شيءٌ؛ فاعلم أنك لن تشاهد هنري جيكل بعد ذلك.»

عندما قرأتُ هذا الخطاب، أيقنتُ بأنَّ زميلي مجنون، لكنني أحسست بأني ملتزمٌ بأداء ما طلَبَه مني ريثما يثبتُ لي جنونه دونما شكٍّ على الإطلاق. وكان عدم تفهُّمي لذلك الخَلْط المشوِّش يمنعني من الحُكْم على أهمية ما يرجوه منِّي. كما أن تعبيره عن رجائه على هذا النحو من المُحال تجاهُله من دون تحمُّل مسئوليةٍ كبرى. وهكذا نهضتُ من فَوْري وركبتُ عربةً بالإيجار واتَّجهتُ مباشرةً إلى منزل جيكل. كان القهرمان ينتظر وصولي، إذ كان قد تسلَّم ببريد المساء نفسه خطابًا مسجَّلًا يتضمن التعليمات الخاصة به فأرسل فورًا في طلب خبير أقفالٍ ونجَّار، ووصَلَ هذان في أثناء حديثنا، وتحرَّكنا جميعًا إلى غرفة العمليات القديمة الخاصة بالدكتور دينمان، سِلْف الدكتور جيكل، إذ يَسهُل منها (كما تعرف قَطعًا) الوصول إلى غرفة مكتب جيكل. كان الباب متينًا جدًّا والقفل ممتازًا، وقال النجَّار إنه سيتعب كثيرًا ويُحدث أضرارًا بالغة لو لجأ إلى استعمال القوة، كما كان خبير الأقفال قد شارَفَ على اليأس. ولكن هذا الأخير كان ماهرًا واستطاع فَتْح الباب بعد ساعتين. وفُتح الصوان الذي يحمل الحرف (E) وأخرجتُ الدُّرْج وملأتُه بالقَش، ثم غطَّيتُه بمُلاءة وعُدتُ به إلى ميدان كافنديش.

هنا شَرَعتُ في فَحْص محتوياته. كانت المساحيق محكَمةَ السَّحْق وإن لم تصل إلى مستوى سَحْق الصيدلي المتمرِّس، وهو ما أوضح لي أن جيكل قد سَحَقها بنفسه، وعندما فتحتُ لِفافة من اللفافات وجدتُ ما بدا لي مِلحًا بسيطًا أبيضَ اللون في بلورات، وأمَّا الزجاجة التي تناولتُها بعد ذلك فكانت تحتوي سائلًا بلونِ الدمِ يصل إلى منتصفها، وكانت رائحته لاذعةً تؤذي حاسَّة الشمِّ وبدا لي أنه يتضمن بعض الفُسْفور والأثير الطيَّار. وأمَّا سائر المحتويات فلَمْ أستطع أن أَحدِس ما تكون. وكانت الكراسة تشبه المفكِّرة العادية ولا تكاد تتضمن إلا سلسلة من التواريخ، وكانت هذه تشمل فترةً تمتدُّ عدَّة سنوات، لكنني لاحظتُ أن الكتابة فيها توقفتْ منذ نحو عامٍ وبصورة مفاجئة. وكانت تتناثر فيها إشاراتٌ مُرفَقة بالتواريخ، ولا تتكوَّن عادةً إلا من كلمةٍ واحدة، هي كلمة

«مضاعَفَة» التي تكررت نحوًا من ستٍّ مرَّات في مذكراتٍ يزيد عددُها على بضعِ مئات، ووجدتُ ملاحظةً في بدايةِ القائمة تقريبًا متبوعةً بعلاماتِ تعجُّب متعدِّدة هي «فشل ذريع!»، وعلى الرغم من أنَّ ذلك كله أثار فضولي فلَمْ أخرج منه بمعلوماتٍ مؤكَّدة. كل ما استطعت حَدْسه أنني أُشاهد قارورةً تحتوي على صِبغة ما، ولِفافة تتضمَّن مِلحًا من نوعٍ ما، وسِجلًّا لسلسلةٍ من التجارب التي أدَّتْ إلى فوائدَ عمليةٍ لا حَصْر لها (مثل الكثير من تجارب واستكشافات الدكتور جيكل). كيف يمكن أن يؤثر وجود هذه المواد في منزلي في شَرَف صديقي الطائش أو في عقله أو في حياته؟ وإن كان هذا المرسال قادرًا على الذهاب إلى مكانٍ ما، فلِمَ لا يستطيع الذهاب إلى سواه؟ وحتى لو افتراضنا وجودَ بعض العوائق، فلماذا ألتقي بهذا الرَّجل سرًّا؟ كنتُ كلما فكرتُ ازددتُ اقتناعًا بأنني أتعامل مع حالةِ مرضٍ عقلي، وعلى الرغم من أنني صرفتُ خَدَمي حتى يناموا؛ فقد حشوتُ مسدسي القديم بالرصاص، إذ ربما احتَجتُ إليه للدفاع عن نفسي.

ولم تَكَد الساعة تدقُّ معلنةً انتصاف الليل في لندن حتى سمعتُ طرقاتٍ خفيفة على الباب، وذهبتُ بنفسي لأفتحه فوجدتُ رجلًا ضئيلَ الجِرم يَقبَع مُستنِدًا إلى عواميد المدخل.

وسألته: «هل أتيتَ من عند الدكتور جيكل؟»

وجاء ردُّه بالإيجاب في صورة إيماءةٍ مُرتبِكة، وعندما طلبتُ منه الدخول لمْ يدخل إلا بعد أن ألقى نظرةً فاحصة خلفه على الميدان الذي يَسُوده الظلام. وكان أحد رجال الشُّرطة بالقربِ منا يتقدَّم بمصباح يدِهِ المُضاء،[٢] وعندما شاهده الزائر أحسستُ بأنه انتفض وأسرع بالدخول.

أعترف بأنَّ هذه التفاصيل تركتْ أثرًا سيئًا في نفسي، وعندما مشيتُ وراءه حتى دخلنا العيادة بأضوائها الباهرة كنتُ أَضَع يدي على سلاحي متأهِّبًا لِمَا قد يَحدث. وفي العيادةِ تمكَّنتُ أخيرًا من مشاهدته بوضوح. لم أكُن قد رأيتُه من قبل قَط، هذا ما تأكَّدت منه فورًا. كان ضئيل الجِرم كما قلتُ، كما راعَتْني بشاعة التعبير على وجهه، إلى جانب جَمْعه العجيب بين النشاط العضلي البالِغ والضَّعف البادي في هيكل بَدَنه، وأخيرًا وليس آخِرًا ما يتسبَّب فيه الاقتراب منه من اضطرابٍ غريبٍ في أعصابي، كأنه بدايةٌ للتيبُّس

[٢] «مصباح يدِهِ المُضاء»: هذا نوع من المصابيح له عدسةٌ زجاجيةٌ ضخمة وسميكة، ووسطُها يشبه مركز المَرْمى الذي يوجِّه اللاعبون سهامهم إليه ويسمَّى (bull’s eye) أي «عين الثور» لأنه يشبِهها.

المَرَضي، إلى جانب انخفاضٍ واضحٍ في النبض. وعزوتُ هذا آنذاك إلى نفوري الخاص وامتعاضي الشخصي منه، واكتفيتُ بالتعجُّب من حدَّة هذه الأعراض، ولكن طرَأَ لي منذ ذلك الوقت ما جعلني أعتقد أنَّ السبب يرجع إلى أعماقٍ أبعد غورًا في طبيعة الإنسان، ويرتكز إلى محورٍ أشرفَ كثيرًا من مبدأ الكراهية.

كان هذا الشخص (الذي أثار عندي من لحظة دخوله إحساسًا لا أستطيع أن أصفُه إلا بأنه الفضول القائم على الاشمئزاز) يرتدي ملابس لو ارتداها الشخص العادي لأثار الضحك منه؛ كانت ملابسه من قماشٍ فاخرٍ ولونٍ وقور، ولكنها كانت أكبر من أن تناسب مقاييسه في كل جزءٍ منها؛ فالسراويل متهدِّلة حول رِجلَيه وقد طُوي أسفلُها حتى لا تَلمس الأرض، وكان خَصْر سُترته العلوية يصلُ إلى ما تحتَ وسطه، ويَاقَة القميص فَضْفاضة تصِلُ إلى كتفَيه. ومن الغريب أن أذكُر أنَّ هذا المَلبَس المُضحِك كان أبعدَ ما يكون عن إثارة ضحكي. فالواقع أنه لمَّا كان جوهر هذا المخلوق نفسه يتَّسم بشذوذٍ وسوء تكوينٍ فطري يواجهني — ولنَقُل إنه كان خَصِيصَة تُدهشك وتأسرُك وتُثير تقزُّزك — فقَدْ وجدتُ أنَّ في هذا التنافر الجديد ما يناسب تلك الخَصِيصَة ويدعمها، وهكذا أُضيفَ إلى اهتمامي بطبيعة الرجل وشخصيته فضولٌ لمعرفة أصله وحياته وثروته ومكانته في دنيانا.

لم تكُنْ هذه الملاحظات التي شَغَلت حيِّزًا كبيرًا في كتابتها إلا وليدةَ ثوانٍ معدودة؛ إذ كان يتوقَّد في نفسِ زائري لَهَب اهتياجٍ ذي كآبةٍ مُقبِضة.

وصاح قائلًا: «هل أحضرتَه؟ هل أحضرتَه؟» وبلَغَ به الجزع مبلَغَه فأمسك بذراعي وحاول أن يهزَّني.

وصددتُه، وشعرتُ عندها بقُشَعريرةٍ باردةٍ كالثلج تسري في عروقي. ثم قلتُ له: «اسمع يا سيدي! لقد نسيتَ أنك لم تعرِّفني بنفسك حتى الآن! تفضَّلْ بالجلوس.» وضربتُ له مَثَلًا فجلستُ في مقعدي المعتاد، محاوِلًا قَدْر الطاقة محاكاة أسلوبي المعهود مع المرضى، أقصد بقَدْر ما استطعتُ أن أقوم به في هذه الساعة المتأخِّرة، ونظرًا إلى طبيعة مشاغلي آنذاك والرعبِ الذي يُلقيه زائري في قلبي.

فأجابَ بأدبٍ جمٍّ: «معذرةً يا دكتور لانيون. ما تقوله يقوم على أساس صحيح، والواقع أن جزعي سبق أدبي. لقد أتيتَ هنا بِناءً على رجاء زميلك الدكتور هنري جيكل؛ لأداء عملٍ مهمٍّ إلى حدٍّ ما، وكما فهمت …» وتوقَّف ووضَعَ يده على حَلْقِه، وهنا أدركتُ أنه

على الرغم من سيطرته على سلوكه كان يقاوم هجوم انفلاتٍ عصبي. وعاد يقول: «وكما فهمت فإنَّ أحد الأدراج ...»

وهنا أشفقتُ على توتُّر زائري، وربما كنتُ أُشفق أيضًا على فضولي المتصاعِد.

وقلتُ له: «ها هو ذا يا سيدي!» مشيرًا إلى الدُّرْج في مكانه على أرضية الغرفة خلف إحدى المناضد وكانت المُلاءة لا تزال تغطِّيه.

ووَثَب نحوه ثم توقَّف ووَضَع يده على قلبه، وسمعتُ صرير أسنانه نتيجةَ الاصطكاك اللاإرادي لفكَّيه، وقدْ علا وجهَهُ شحوبٌ كشحوبِ الموت حتى أصابني القلَقُ على حياته وعقله.

قلتُ له: «تمالَكْ أعصابك!»

فواجَهَني بابتسامةٍ رهيبة، وكأنما دفَعَه اليأس إلى اتخاذ القرار فنَزَع المُلاءة من فوق الدُّرْج، وعندما رأى ما فيه ندَّت من صدره شهقةٌ عالية تُعرِب عن ارتياحه الشديد حتى تحجَّرتُ في مكاني. وفي اللحظة التالية سألني بصوتٍ ينمُّ عن استعادته رِباطة جَأْشه: «هل عندك أنبوبُ اختبارٍ مدرَّج؟»

نهضتُ من مكاني ببعض الجهد وأعطيتُه ما طَلَب.

شَكَرني بإيماءةٍ باسمة، وصبَّ في الأنبوب كميةً ضئيلة من الصبغة الحمراء بمقياسٍ دقيق، ثم أضاف أحَدَ المساحيق. وكان المخلوط أحمرَ اللون أول الأمر، ثم بدَأَ اللون يخفُّ ويصبح برَّاقًا كلما انصهرتْ فيه البلورات، وكان يَفُور بصوتٍ مسموعٍ أو تخرج منه سحاباتٌ صغيرةٌ من الأبخرة. وفجأةً وفي اللحظة نفسها توقَّف الغليان، وأخذ لون المخلوط يتغير فأصبح أرجوانيًّا أدكن تحول تدريجيًّا وببطء أشد إلى الأخضر المائي. وابتسم زائري في أثناء مراقبة هذه التحوُّلات بعينٍ ثاقبة، ثم وضَعَ الأنبوب على المنضدة والتفتَ إليَّ ناظرًا نظرةً فاحصة قائلًا: «فَلْتحسم الآن أمْرَ الخُطوات الباقية. تُراك تفضِّل الحكمة والرشاد فتَترُكني آخُذُ هذا الأنبوب معي، وأغادر منزلك من دون المزيد من الجدل، أم أنَّ طموح فضولك قد استولى عليك؟ فكِّر قبل أن تُجيب؛ فسوف ألتزم بقرارك. فإذا اخترت، فسوف أتركك كما كنتَ قبل أنْ آتي، من دون زيادةٍ في الثراء أو في الحكمة، إلا إن كنتَ ترى أنَّ إسداء خدمة إلى رجُلٍ في كربٍ مُهلِك يمثِّل نوعًا من الثراء للنفس. وأمَّا إذا اخترتَ غيرَ هذا فسوف يَنفتِح أمامك عالَمٌ جديد من المعرفة، وتمتدُّ أمامك دروبٌ جديدة لذيوعِ الصِّيت والسُّلطة، هنا في هذه الغرفة، وفي هذه اللحظة، وسوف تَدهَم بصَرَك أعجوبةٌ تزعزِع كُفْر إبليس.»

قلتُ له مُصطنِعًا رِباطة جَأْش كنتُ أبعَدَ ما أكون في الواقع عن التحلِّي بها: «يا سيدي! إنك تتحدث عن ألغاز، وربما لن تُدهش إن قلتُ إنني أستمع إليك من دون تصديقٍ حقيقي. لكنني قد سِرتُ في طريق تقديمِ خِدماتٍ لا أَفهمها مسافةً لا تسمح لي بالتوقُّف قبل أن أرى نهاية الطريق.»

وقال زائري: «لا بأس! تذكَّر يا لانيون ما أقسمتَ عليه بوصفك طبيبًا، ويندرج ما يلي تحت قَسَم الكتمان الذي تفرضه مهنتنا.[٣] والآن! انظر يا مَن التزمت زمنًا طويلًا بأشدِّ الآراء ضِيقًا وإغراقًا في المادية! انظر يا مَن أنكرتَ فَضْل الطبِّ المتعالي! انظر يا مَن كنتَ تسخر ممَّن يفوقونك في العلم! انظر!»

ورَفَع أنبوبة الاختبار إلى شفتَيه وشرِبَ ما فيها دفعةً واحدة. وأَعقَب ذلك إصدارُه صيحةً عظيمة، ثم إذا به يترنَّح ويُمسك بالمنضدة ويتعلَّق بها، مُحملِقًا بعينَين مُحتقِنَتَين، لاهثًا بفمٍ مفتوح، وحَدَث تغييرٌ عجيب في أثناء متابعتي النظر؛ إذ بدا أنه يتضخَّم، واسودَّ وجهُهُ فجأةً وأخذتْ ملامحُه تنصهر فيما يبدو وتتبدَّل، وفي اللحظة التالية انتفضتُ واقفًا وتراجعتُ إلى الجدار، رافعًا يديَّ لأحمي نفسي من هذه الأُعجوبة وعقلي في لجَّة الرعب.

وصرختُ قائلًا: «يا رب!» وظَلِلتُ أقول: «يا رب.» المرة بعد المرة؛ إذ كان أمام عيني رجلٌ شحُبَ لونُه واضطرب جسمه وبدا شبهَ مُغمًى عليه ثم جَعَل يتلمَّس ما حوله بيدَيه، مثل رجلٍ عاد من عالَم الموتى! كان أمام عينِي هنري جيكل!

وأمَّا ما ذَكَره لي في الساعة التالية فلا أستطيع إرغام نفسي على كتابته. فقد سمعتُ ما سمعتُ وشاهدتُ ما شاهدت، واشمأزتْ نفسي منه جميعًا، لكنني في بعض الأحيان، عندما يخبو المشهد في ذاكرتي، أتساءل إن كنتُ أصدِّق أنه حَدَث، ولا أستطيع الإجابة. لقد تصدَّعت حياتي حتى الأعماق، ويُلازمني الأَرَق، كما تحدِّق بي أشدُّ ألوان الرعب الفتَّاك آناءَ الليل وأطراف النهار، وأَشعُر أنَّ أيامي معدودة، وأنني لا بدَّ هالِكٌ لا مَحالة، ومع ذلك فسوف أموتُ من دون تصديق. وأمَّا عن الانحطاط الأخلاقي الذي أماط لي ذلك الرَّجلُ اللِّثامَ عنه، على الرغم من انهمار دموع توبته، فلا أستطيع أن أتصوَّره ولو في ذاكرتي دون أن يَدهَمني الفَزَع. لكنني سأُضيف أمرًا واحدًا يا أترسون، وسوف يكون أكثر من كافٍ (إن استطعتَ تصديقه). كان ذلك المخلوق الذي تسلَّل إلى منزلي تلك الليلة،

[٣] «مهنتنا»: لما كان المتكلِّم هنا هايد لا جيكل؛ فإن هذه بوضوحٍ غلطة.

وباعتراف الدكتور جيكل نفسه، معروفًا باسم هايد الذي تُلاحِقه السلطات في كل رُكنٍ من أركان هذا البلد باعتباره قاتلَ كيرو.

هيستي لانيون

أقوال هنري جيكل الكاملة في القضية

ولدتُ في عام – ١٨م، وورثت ثروةً طائلة، وكنت أتمتَّع بمواهبَ فطريةٍ ممتازة، وميلٍ بطبيعتي إلى الجدِّ والاجتهاد، مولَعًا باحترام الحكماء والأخيار من بني البشر، وهكذا توافرتْ لي — كما هو مُفترَض — جميع ضمانات المستقبل المشرِّف المتميِّز. والواقع أن أسوأ عيوبي كان طبعَ المَرَح اللَّحوح، وهو الذي كان يجِدُ الكثيرون فيه السعادة، لكنني وجدتُ أنه يتناقض مع رغبتي العارمة في أن أسير مرفوعَ الرأس وأن أَظهَر أمام الناس بوجهٍ يتميز بقدرٍ أكبرَ من الوقار المعتاد. وأدَّى ذلك إلى أنْ أصبحتُ أُخفِي مسرَّاتي وملذَّاتي، وعندما بلغتُ سنَّ التأمُّل والتفكير وبدأتُ أنظُر حولي وأستقصي مدى تقدُّمي ومكانتي في هذه الدنيا، وجدتُ أنني كنتُ قد الْتزمتُ فعلًا بازدواجيةٍ عميقة في حياتي. وكَمْ من إنسانٍ تباهى بأمثال ما كنتُ أرتكبه من المنكَر، لكنني كنتُ ألتزم بالمُثُل العليا التي وضعتُها لنفسي، فكنتُ أنظُرُ فيما أرتكبه وأُخفيه بإحساسٍ بالعار يكاد يبلغ حدَّ المرض. وهكذا فقَدْ أصبحتُ ما أنا عليه بسبب طموح تطلُّعاتي لا بسبب أيِّ حِطَّة في نقائصي، وأدَّى ذلك إلى حَفْر أخدودٍ في حياتي أعمقَ من أَخَاديد الغالبية، بحيث فَصَل عندي منطقة الخير عن منطقة الشر، وهما المنطقتان اللتان تنقسم إليهما وتتكوَّن منهما حياة الإنسان الثُّنائية، وفي هذه الحالة وجدتُ نفسي مَسُوقًا إلى التفكُّر والتأمُّل العميق لقانون الحياة القاسي؛ ذلك القانون الذي تَنبُت منه جذور الدين ويُعتبر من أثرى وأوفى منابع الغمِّ والهم. وعلى الرغم من أنني أُمارِس هذه الازدواجية العميقة، فلَمْ أكُن في يومٍ من الأيام مُتصنِّعًا بل كان كلُّ جانبٍ من الجانبين في نفسي صادقًا جادًّا كلَّ الجد. لم أكُن ألتزم بحقيقةِ ذاتي عند التخلِّي عن ضبط النفس والانغماس في العار أكثرَ من الْتزامي بها

في اجتهادي طُولَ النهار لزيادة المعرفة البشرية، أو تخفيف الأحزان والمعاناة. وتصادَفَ أن اكتشفتُ أن دراساتي التي كانت تتَّجه جميعًا نحو فَهْم التعالي على المادة وأسرار حياة الرُّوح؛ قد تفاعلتْ وألقتْ بالضوء الغامر على إدراكي المذكور للحرب الدائمة الدائرة بين أعضائي،[1] وكنت أقترب في كل يوم، ومن زاوية الجانبَين اللذَين يشكِّلان ذهني — أي الجانب الأخلاقي والجانب الفكري — من هذه الحقيقة باطِّراد، وكان اكتشافي جانبًا منها هو الذي قضى بأن تتحطَّم سفينة ذاتي تحطُّمًا مُروِّعًا، ألَا وهي أن الإنسان في الحقيقة ليس كائنًا واحدًا بل كائنان في الواقع. وأقول: «كائنان اثنان.» لأنَّ معرفتي الخاصة لم تُتِح لي أن أتجاوز هذا الحد. سوف يَتبَعني آخرون، وسوف يتفوَّق عليَّ آخرون في هذه الدروب نفسها، ولعلِّي أُخاطر بالتعبير عمَّا أَحدِسه وهو أنَّ الإنسان سوف يُثبت آخرَ الأمر أنه مجردُ بلدٍ يَسكُنه قاطنون متعدِّدو المَشارِب، متناقِضون، مستقِلُّون. أمَّا أنا فقَدْ تقدَّمتُ — استنادًا إلى طبيعة حياتي — دون ارتكاب أيِّ أخطاءٍ في اتجاهٍ واحد فقط. ولقد تعلَّمت الإقرار بالثُّنائية البُدائية الأصيلة للإنسان في الجانب الأخلاقي وفي شخصي أنا، ورأيتُ أنه إذا أمكَنَ القولُ حقًّا بأنني أنتمي إلى إحدى «الطبيعتَين» اللَّتَين تتنازعان السيطرة في مجال وعيي؛ فليس ذلك إلا لأنني أتكوَّن في جوهري منهما معًا. كما تعلَّمتُ في وقتٍ مبكِّر، حتى من قبل أن تبدأ مكتشفاتي العلمية في الإلماح إلى إمكانيةِ حدوثِ هذه المعجزة بصورةٍ عِلمية، أن أتلذَّذ طويلًا بالتفكير في الفصل بين هذَين العنصرَين؛ باعتبار ذلك من أحلام اليقظة المحبَّبة. قلتُ لنفسي: لو كان من الممكن أن يَشغل كل عنصر منهما هُويةً مستقِلَّة، لتخلَّصت الحياة من جميع أعبائها الرازحة، إذ يتمكَّن المُسِيء أنْ يمضي في طريقه دون تنغيصِ الطموحات وآياتِ الندم الصادرة من تَوءَمه المستقيم، ويتمكَّن المحسِن أنْ يسير بثباتٍ واطمئنان في طريقه القويم، فيفعل الخير الذي يجِدُ فيه سروره، دون أن يتعرَّض للعار وللتوبة بسبب ما ترتكبُه أيدي ذلك الشرير الدخيل! كنتُ أرى أنَّ لعنة الإنسان تتمثَّل في ربطِ هذَين العنصرَين المتناقِضين في حُزمةٍ واحدة،[2] وأن يتصارع هذان التوءمان المتنافران باستمرارٍ في رَحِم الوعي الذي يؤلمه الصراع! فكيف افترقا إذن؟

---

[1] «الحرب الدائرة بين أعضائي»: هذا صدًى لرسالة يعقوب بالكتاب المقدَّس (١:٤): «من أين النزاع والخصام بينكم؟ أليس من لَذَّاتكم تلك المُتصارِعة في أعضائكم؟»

[2] «حُزمة واحدة»: الأصل (faggots) يعني الحُزمة من الأخشاب المربوطة معًا، وعادةً ما تُستخدم حطبًا.

كنتُ قد بلَغتُ هذه المرحلة في تأملاتي، كما ذكرت، عندما بدأ ضوءٌ جانبيٌّ يسطع على الموضوع من منضدة المختبر؛ إذ إنني بدأتُ أدرك بعمقٍ يزيد عمَّا سَبَق أنَّ هذا الجسد الذي «نرتديه» ونمشي فيه إنما يبدو صُلبًا وحَسْب، لكنه غير مادي وبالِغ الرهافة، يُشبه الضباب في عدم ثباته، واكتشفتُ أن عوامل معيَّنة تتَّسم بالقدرة على هزِّ هذا الرداء الجسدي وإزاحته كما تهزُّ الريح ستارةً على باب خيمةٍ وتُزيحها. وعندي سببان وجيهان لعدم الغوص في هذا الجانب العلمي من اعترافي؛ السبب الأول أنني عُلِّمتُ أنه قد كُتِب على الإنسان أن يتحمَّل المصير المحتوم لحياتنا وعِبْئها، وكلما حاولْنَا طرْحَهما عادا إلينا بوطأةٍ أغربَ وأشدَّ هَولًا. والسبب الثاني أنَّ اكتشافاتي لم يُكتَب لها للأسف أن تكتمل، على نحو ما سوف يتَّضح هنا من قصتي بجلاءٍ شديد. يكفي إذن أن أقول: إنني لم أكتشف وحَسْب أنَّ جسدي «الطبيعي» ليس إلا الشذا والضياء المنبعثَين من بعض القُوى التي تتكوَّن منها روحي، بل إنني تمكَّنت أيضًا من تركيب عقَّار قادرٍ على خلْعِ هذه القُوى من عَرش سيادتها، وإحلال جسَدٍ ثانٍ ووجهٍ ثانٍ محلَّ هذا الجسد وهذا الوجه، بحيث يمثِّلان طبيعتي أيضًا ما داما يعبِّران عن بعض العناصر السفلى في نفسي ويحملان طابعها.

ترددتُ طويلًا قبل أن أختبر هذه النظرية عمليًّا. كنتُ أعلَمُ عِلمَ اليقين أنني أُخاطر بتعريض نفسي للهلاك؛ إذ إنَّ أيَّ عقَّار يتميز بهذه الطاقة الجبَّارة على هزِّ قلعة الهوية ذاتها والسيطرة عليها، يمكنه — إذا زادت الجرعة مثقالَ خَرْدلةٍ أو إذا كان التناوُل في وقتٍ يتأخَّر أو يتقدَّم لحظةً واحدة عمَّا هو مناسب — أن يَهدِم تمامًا ذلك المعبد غير المادي الذي كنتُ أطمح إلى تغييره. ولكن إغراء إتمامِ مثل هذا الاكتشاف الفريد والعميق تغلَّب آخر الأمر على دواعي الخوف. ولَمَّا كنت قد أعددتُ الدواء ذا الصِّبغة الخاصة بي فقَد اشتريتُ من فَورِي من إحدى شركات الصيدلة التي تبيع بالجملة مقدارًا ضخمًا من مِلحٍ معيَّن كنتُ أعرف، من تجاربي، أنه آخرُ المكوِّنات المطلوبة. وفي وقتٍ متأخر من ليلةٍ ملعونة، خلطتُ العناصر معًا وراقبتُ الخليط وهو يغلي ويخرج منه الدخان في القارورة، وعندما هدأ الغليان استجمعتُ أطراف شجاعتي وشربتُ الجرعة.

وتلتْ ذلك آلامٌ شديدةٌ مُبَرِّحة، إذ أحسستُ بطحْنٍ في العظام، وغثيانٍ فتَّاك، ورعبٍ في الرُّوح لا يُداني ساعة المَولِد أو الموت. ثم بدأتْ هذه الآلام تتلاشى بسرعة، وعُدْت إلى نفسي كأنما شُفيت من مرضٍ عظيم. كان في أحاسيسي شيءٌ غريب؛ شيء جديد بصورةٍ لا تُوصف، وكانت لجِدَّته نفسها عذوبةٌ لا تُصدَّق، إذ شعرتُ بأنني أصغرُ سنًّا، وأخفُّ

وأسعد جسدًا، وكنت في أعماقي أشعُر بتهوُّرٍ شديد، وبحشدٍ دافِق من الصور الحسِّيَّة تجري في سباق بلا غاية في خيالي، وبانحلال روابط التزاماتي، وبحُرِّيةٍ في النفس مجهولة وإنْ لم تكُن بريئة. ومنذ أول أنفاس هذه الحياة الجديدة أدركتُ أنني ازددتُ شرًّا، بل إن مَيلي إلى الشرِّ تضاعَفَ عَشْر مرَّات، وأنني أصبحتُ عبدًا بِيعَ إلى شرِّيَ الأصيل، ودعمتْني هذه الفكرة وأبهجتني مثل جرعةٍ من النبيذ. ومددتُ يديَّ أتمطَّى في جذلٍ فرِحًا بهذه الأحاسيس الجديدة، وفي هذه الأثناء أدركت فجأةً أنَّ قامتي قَصُرت.

لم تكن في غرفتي في ذلك الوقت مرايا، وأمَّا المرآة التي تقف بجانبي وأنا أكتب فقد أحضرتُها فيما بعد إلى هنا، ولغرضِ رَصْد هذه التغييرات نفسها. ولكن تلك الليلة كانتْ قد وصلتْ إلى الهزيع الأخير، وكان الصباح على سواده يُؤذن تقريبًا بمولد النهار. وكان المقيمون في منزلي أسرى لأعمق ساعات النوم، وقررتُ في زَهوي إذ ذاك بالأمل والنصر أنْ أنطلق بمظهري الجديد حتى أصِلَ إلى غرفة نومي. وعبرتُ الفِناء المفتوح للسماء وأبصرتُ كوكبات النجوم من فوقي وقلتُ في نفسي: لعلَّها تتأملني في دهشة، إذ كنتُ أول مخلوقٍ من هذا النوع تشهده في سهرها الدائم، وتسللتُ عبْرَ الممرَّات، كأنني غريب داخل منزلي، وعندما وصلتُ إلى غرفة النوم رأيتُ للمرة الأولى مَظهرَ إدوارد هايد.

لا بدَّ أن يقتصر حديثي الآن على الجانب النظري من القضية، فلَنْ أذكُر شيئًا مؤكَّدًا، بل ما أفترض ترجيحه وحَسْب. كان الجانب الشرير في طبيعتي الذي نَقلتُ إليه مؤقتًا طاقتي الفعَّالة أضعفَ وأقلَّ نُضجًا من جانب الخير الذي خلعتُه لتوِّي عن العرش. والواقع أن تسعة أعشار حياتي كانت مكرَّسة للجدِّ والاجتهاد والفضيلة وضبط النفس؛ ولذلك فقَدْ كان الجانب الشرير أقلَّ عملًا وأقلَّ استهلاكًا. وأظنُّ أن ذلك يفسِّر كَونَ إدوارد هايد أصغرَ جِرمًا، وأخفَّ كِيانًا، وأحدثَ سنًّا من هنري جيكل. ومثلما كان الخير يسطع على مُحيًّا الأول؛ كان الشرُّ مكتوبًا بوضوحٍ وبحروفٍ كبيرة على وجه الثاني. وإلى جانب ذلك فإنَّ الشرَّ (الذي ما زلتُ أعتقد أنه الجانب المُهلِك في الإنسان) قد خَلَف طابعَ التشوُّه والتدهور في جسد الثاني. ومع ذلك فإنني لم أشعُر حين نظرتُ إلى ذلك الصنم القبيح في المرآة بأيِّ نفور، بل بدفقةِ ترحيب. كان هذا أيضًا يمثِّل ذاتي. وبدا لي طبيعيًّا ومن بني الإنسانِ فعلًا، بل كان يمثِّل لعيني صورةً للروح أشدَّ حيوية وأكثر صراحةً وتفرُّدًا من ذلك الوجه الناقص والمُنقسِم على نفسه الذي اعتدتُ اعتباره وجهي حتى هذه اللحظة. وفي هذه الحدود كنتُ مُصيبًا دون شك. وقد لاحظتُ أنني كنتُ عندما أكتسي مظهرَ إدوارد هايد لا يقترب منِّي أحدٌ للمرة الأولى إلا دَهمَتْه مخاوفُ يَشهَد بها جسدُه. والسبب كما

أتصوره أنَّ كلَّ إنسانٍ نصادفه خليطٌ من الخير والشر، ولكن إدوارد هايد كان من دون الناس جميعًا شرًّا خالصًا.

لم أَقِفْ غير لحظة أمام المرآة، إذ كان لا بدَّ من إجراء التجربة الثانية والحاسمة، أي أنه كان يَلزمني أن أتبيَّن إن كنتُ فقدتُ هُويتي دونما رجعة، ومن ثَم يتعيَّن عليَّ الفرار قبل سطوع ضوء النهار من منزلٍ لم يعُدْ منزلي، وهكذا أهرعتُ عائدًا إلى غرفة مكتبي وأعددتُ العقَّار مرةً أخرى وشربتُه، وعاودتني من جديدٍ آلام انحلال جسدي، وعُدتُ إلى ذاتي مرةً أخرى بشخصية هنري جيكل وقامته ووَجْهِه.

كنتُ في تلك الليلة قد وصلتُ إلى مُفترَق الطُّرُق الذي يحدِّد مصيري. لو أنني تعاملتُ مع اكتشافي بروحٍ أشدَّ نُبلًا، ولو كنتُ خاطرتُ بإجراء التجربة في إطار طموحاتٍ كريمة أو ذات وَرَع؛ لاختلفَ كلُّ شيء، ولكُنتُ خرجتُ من سَكَرات الموت وآلام المَخاض ملاكًا لا شيطانًا. لم تكُن للدواء قدرةٌ على التمييز في تأثيره، فلَمْ يكن شيطانيًّا ولا ربَّانيًّا، بل كان يقتصر على زعزعة أبواب السجن الذي حبَستُ فيه نوازعي، وما إن انفتحت الأبواب حتى انطلق السُّجناء مثل أسرى فيليبي.[٣] وفي ذلك الوقت كانت فضيلتي تغفو والشرُّ يقِظٌ منتبِهٌ بفِعْل الطموح، وما أسرعَ ما انتَهزَ الفرصة السانحة، فتمثَّل عمليًّا في شخص إدوارد هايد. وهكذا، فعلى الرغم من أنني كنتُ آنذاك ذا شخصيتَين وذا مظهرَين: أحدهما شرٌّ كامل هو إدوارد هايد، والآخر كما هو هنري جيكل القديم؛ فإنني كنتُ قد دَرَجت بالفعل على اليأس من إصلاح هذا الأخير الذي يتركَّب من عُنصرين متناقضين أو تحسين حاله، وهكذا فقَدْ كان التغيير يسير برُمَّته نحو ما هو أسوأ.

لم أكُنْ حتى في ذلك الوقت قد قهرتُ نفوري من جفاف حياة الدراسة، إذ كنتُ لا أزال أميل إلى المَرَح في بعض الأوقات، ولَمَّا كانت منابع مسرَّاتي (إذا تلطَّفتُ في التعبير) غيرَ مُحترَمة، وكنتُ لا أقتصر على التمتُّع بالشهرة والتبجيل الشديد، بل أتقدَّم نحو الشيخوخة أيضًا، فقد كنتُ أزداد نفورًا في كل يوم من هذا التفكُّك في حياتي. ومن هذه الثغرة نَفَذ إليَّ إغراء قوَّتي الجديدة حتى أصبحتُ عبدًا لها. كل ما كان مطلوبًا هو أن أتجرَّع الدواء وأخلع عن نفسي جَسَد الأستاذ الذائع وأكتسي جسد إدوارد هايد مثلَّ العباءة الثقيلة. كنتُ أبتسم لهذه الفكرة؛ إذ كانت تبدو لي أحيانًا فُكاهية، وكنت أُجري استعداداتي بحرصٍ

[٣] «أسرى فيليبي»: الإشارة هنا إلى سِفر أعمال الرسل بالكتاب المقدَّس (١٦:٢٦).

شديد. فاستأجرتُ وأثَّثتُ المنزل الموجود في حيٍّ سوهو، وهو الذي اهتدتْ إليه الشُّرطة في بحثها عن هايد، واستخدمتُ مدبِّرة للمنزل أثِقُ في قُدرتها على الكتمان وعدم التقيُّد بمبادئ الأخلاق. ومن ناحيةٍ أخرى أعلنتُ للخَدَم في منزلي أنَّ شخصًا يُدعى مستر هايد (وصفتُه لهم) يجب أن يُمنح مطلق الحرية والسُّلطة في منزلي في الميدان، ولِتحاشِي وقوعِ عارضٍ سيئ جعلتُ أتردَّد على منزلي حتى يألَفَني الجميع في شخصيتي الثانية. وبعد ذلك أعددتُ الوصيَّة التي كثيرًا ما اعترضتَ عليها أنت، بحيث أستطيع أن «أُدخل» شخصيةَ إدوارد هايد من دون خسارةٍ مالية إن حَدَث لي حادث وأنا في شخصية هنري جيكل. وبعد أن تدرَّعتُ في ظنِّي، من جميع الوجوه، بدأتُ أستفيد بضروبِ الحصانة الغريبة التي يُتيحها لي وضعي.

كان الناس في الماضي يستأجرون البلطجيَّة لارتكاب جرائمهم، في حين تظلُّ شخوصهم وسمعتهم في مَأمَن، لكنني كنتُ أول مَن يرتكب الجريمة لُمتعته الخاصة! كنتُ أول مَن يستطيع أن يتمهَّل في سيره أمام أعيُنِ الناس بأثقاله من الاحترام البَشوش، ثم يتخلَّص في اللحظة التالية من هذه السمات المستعارة، مثل تلاميذ المدارس، ثم يقفز للغوص برأسه في بَحرِ الحرية. وأمَّا أنا فقد كان كِسائي دِرعًا حصينًا يضمن لي السلامة الكاملة. ولْتتأمل ما أقول! لم أكُن موجودًا أصلًا! فلْأهرب وحَسْب داخلًا من باب المختبر، وامنحني ثانيةً أو ثانيتَين لخَلْط الشَّراب وتجرُّعه، وهو الذي كنتُ أحرِص على وجوده جاهزًا، ومهما يكُنْ ما فَعَله إدوارد هايد فسوف يختفي كالبُقعة التي تتركها الأنفاس على سطح المِرآة، وسوف تجِدُ في مكانه رجلًا يجلس في هدوء في منزله، ويسهر الليل مُنكبًّا على دراساته، ويَملِك أن يسخر من أيِّ رِيبةٍ فيه، أي هنري جيكل!

كانت الملاذُّ التي أسرعتُ بنِشْدانها بعد تنكُّري «غير مُحترَمة» كما قلت، ولا أحبُّ أن أستعمل تعبيرًا أقسى من هذا، وأمَّا على يدَي إدوارد هايد فسرعان ما تحوَّلت إلى وقائع بشِعَة. وعند عودتي من هذه الشطحات، كثيرًا ما كان يغمُرني العَجَب من انحلالي الذي يقوم به قريني نيابةً عني! هذا العِفريت القرين الذي استخرجتُه من داخل ذاتي، ثم أطلقتُه في هذه الدنيا ليفعل ما يحلو له، كان في جوهره كائنًا خبيثًا وشريرًا، فكان كل ما يفعله وكل ما يفكِّر فيه يدور حول ذاته، وكان يتجرَّع المتعة بظَمأٍ وحشي متنقِّلًا بين شتَّى درجات التعذيب الذي يمارسه، لا يلين أبدًا كأنما هو رجلٌ من الحجر. وكان هنري جيكل أحيانًا ما يُذهله ما يفعله إدوارد هايد، ولكن موقفه لم تكُنْ له عَلاقة بالقوانين العادية، وكان يُرخي قبضة ضميره بصورةٍ خبيثة. كان الوِزر يَقَع، على أيِّ حال، على

عاتق هايد، وعلى عاتقه وحده، وأما «جيكل» فلَمْ يُصبْه سوء، وكان يعود من جديدٍ لصفاته الحميدة من دون أن يَمْسَسه أيُّ أذًى فيما يبدو، بل كان يُسرع أحيانًا لإصلاح ما أفسده هايد، حيثما يتمكَّن من ذلك. وهكذا غفا ضميره.

لا أعتزم الدخول في تفاصيل السلوك الشائن الذي تغاضيتُ عنه أو كنتُ فيه مُتواطِئًا على هذا النحو (إذ إنني لا أستطيع التسليم حتى اليوم بأنني ارتكبتُه) وأعتزم وحَسْب أن أُشير إلى المحاذير والخطوات المتعاقِبة التي اقتربتْ بها عقوبتي. وقَعَ لي حادثٌ سوف أكتفي بالإشارة إليه ما دام لم يؤدِّ إلى عواقب تُذكر. كانت تلك حادثةَ قسوةٍ على طفلةٍ أثارتْ غضَبَ أحدِ المارَّة، وهو الذي عرفتُ منذ يومَين أنه أحدُ أقربائك. وانضمَّ إليه الطبيب وأفراد أسرة الفتاة، ومرَّت عليَّ لحظاتٌ خِفتُ فيها على حياتي. وحاوَلَ إدوارد هايد أن يُزيل غضَبَهم الذي كان لهم الحقُّ كل الحقِّ فيه؛ فاصطَحَبهم إلى الباب ودَفَع لهم مبلغًا بشِيك مسحوبٍ على حسابي في البنك وباسْمِي، هنري جيكل. لكنني أزلتُ هذا الخَطَر بعد ذلك بأنْ فتحتُ حسابًا في بنكٍ آخر باسم إدوارد هايد نفسه. وعندما جعلتُ خطَّ يدي يميل إلى الخلف؛ وفَّرتُ لقريني توقيعًا مختلفًا وظننتُ أنني أصبحتُ بمنجًى من بَطْش القَدَر.

وقبل شهرَين من مقتل السير دانفرس، كنتُ قد خرجتُ للقيام بإحدى مغامراتي، ورجعتُ إلى المنزل في ساعةٍ متأخِّرة، وصحوتُ في اليوم التالي وقدْ انتابتْنِي في فراشي أحاسيسُ غريبةٌ إلى حدٍّ ما. جعلتُ أنظُر فيما حولي عبثًا، وعبثًا تطلَّعتُ إلى الأثاث الفاخر واتِّساع غرفتي وارتفاع سَقْفها، وهي التي تطلُّ على الميدان، وعبثًا حاولتُ التعرُّف على أنساق ستائر الفراش وتصميم إطاره المصنوع من خشب الماهوجني! إذ إنَّ شيئًا في داخلي ظلَّ يُصرُّ على أنني لم أكُنْ حيث كنت، وأنني لم أستيقظ حيث من المفترض أن أستيقظ، ولكن في الغرفة الصغيرة في سوهو حيث اعتدت النوم بجسد إدوارد هايد. وابتسمتُ لنفسي وبدأتُ بأسلوبِ علم النفس عندي أَبحَث متكاسِلًا في عناصر هذا الوَهْم، وكنتُ في أثناء ذلك أغفُو أحيانًا؛ إذ تأخذني سِنةٌ من النوم الهنِيءِ في الصباح. وكنتُ مُنهمِكًا في ذلك ذات مرةٍ حين وقعتْ عيني في لحظةٍ من لحظات صحوي على يدي. أمَّا يد هنري جيكل (التي كثيرًا ما علَّقتَ عليها أنت) فكانت تُناسب المهنة في الشكل والحجم، أيْ أنَّها كانت كبيرة وصلبة وبيضاء وجميلة. وأمَّا اليد الذي شاهدتُها الآن بوضوحٍ كافٍ في الضوء الأصفر للصُّبح في منتصف لندن، وهي نصف قابضةٍ على غِطاء الفراش، فكانت نحيلةً معروقةً

بارزةَ البَراجم ذاتَ لونٍ غَسَقيٍّ شاحِب، يكسوها ظلٌّ شَعرٍ كثيفٍ جذَّاب؛ كانت يد إدوارد هايد.

لا بدَّ أنني جعلتُ أحدِّق فيها مُدة تقرُب من نصف دقيقة، غارقًا فيما جرَّته الدهشة من بلادة الذهن، قبل أن يصحو الرعب في صدري مفاجئًا مفزِعًا كدَقَّة عاليةٍ على الصَّنْج! وَثَبتُ من فراشي وأهرعتُ إلى المرآة، وما أن شاهدتْ عيناي ما فيها حتى استحال دمي إلى سائلٍ بالِغ البرودة والخفَّة. نعم، لقد أَويتُ إلى الرُّقاد وأنا هنري جيكل، وصحوتُ وأنا إدوارد هايد. سألتُ نفسي: كيف يمكن تفسير هذا؟ ثم تساءلتُ مرةً أخرى بعد أن وَثَب الرعب مرةً أخرى في صدري: كيف يمكن علاج الأمر؟ كان الصباح في إبَّانه واستيقظ الخَدَم جميعًا، وكلُّ عقاقيري في غرفة المكتب. كان الوصول إليها من حيث كنتُ أَقِفُ والرعب يغشاني يتطلَّب قَطْع مسافةٍ طويلة، ونزول الدَّرَج مرتَين، وعبور الممرِّ الخلفي والفِناء غير المسقوف والمرور في غرفة التشريح. قد يكون من الممكن في الواقع تغطية وجهي، ولكن ما جدوى ذلك ما دُمتُ عاجزًا عن إخفاء التغيير الذي أصاب قامتي؟ وعندها تذكَّرتُ براحةٍ نفسيةٍ ذاتِ عذوبةٍ طاغية أنَّ الخَدَم معتادون فعلًا على دخول وخروج ذاتي الثانية. وسرعان ما ارتديتُ الملابس التي تُناسب مقاسي قَدْر الطاقة وانطلقتُ أسير في المنزل حيث توقَّفَ الخادم برادشو ثم تراجع مُحملِقًا في دهشةٍ من مشاهدة مستر هايد في مثل تلك الساعة وفي تلك الملابس الغريبة. وبعد عشر دقائق كان الدكتور جيكل قد عاد إلى صورته الأولى، وجلَس بجبينٍ مقطَّب متظاهِرًا بتناول الإفطار.

كانت شهيَّتي للطعام محدودةً فعلًا، فإنَّ ذلك الحادث الذي لا تفسير له — وهو الذي يمثِّل عكْسَ تجربتي السابقة — بدا لي مثل الإصبع التي أشارتْ إلى النذير بالنهاية المكتوبة على الجدار في بَابِل القديمة،[٤] أي إنه كان مثل الحروف الواضحة التي كُتب بها الحُكْم عليَّ. وهكذا شَرَعتُ أتأمَّل قضايا وجودي المُزدوَج واحتمالاته بجدٍّ يفوق ما أبديتُه في أيِّ وقتٍ مضى، فوجدتُ أنَّ جانبي الذي استطعتُ تجسيده عمليًّا قد ازداد تدريبًا وغذاءً في الآونة الأخيرة، وبدا لي أيضًا في الآونة الأخيرة أنَّ جَسَد إدوارد هايد قد نَمَا وارتفعتْ

[٤] «الإصبع ... على الجدار في بابل القديمة»؛ يقول الكتاب المقدَّس (دانيال، ٥:٥–٣١): إنَّه بينما كان الملك بيلشاصر حاضرًا في وليمةٍ أولَمَها لنبلاء دولته، ظهرتْ يدٌ وأشارتْ إلى كلماتٍ تتنبَّأ بسقوطه مكتوبة على الجدار. وتعبير «الكتابة ظهرتْ على الجدار» يعني أن نهاية أحد الناس وشِيكة.

قامتُه، فكأنما كنت أُدرك (وأنا أكتسي تلك الصورة) أنَّ الدماء تتدفَّق فيه بسخاءٍ أكبر، وبدأتُ أتوجَّس خطرًا جديدًا، وهو أنه إذا طالتْ مدَّة ممارستي لهذا الازدواج، فربما اختلَّ ميزان طبيعتي وانقلَبَ إلى الأبد، بحيث أَفقِد الطاقة على التغيير الطَّوعي وتنحصر ذاتي في شخصية إدوارد هايد، بلا أملٍ في التخلُّص منه. ولم يكُن الدواء يفعل مفعولَه نفسَه في كلِّ مرة، وذاتَ يومٍ — في البدايات الأولى لتجاربي — خذَلَني تمامًا، ومنذ تلك التجربة كنتُ أُضطر، في أكثر من مناسبة، إلى مضاعفة الكمية، بل إلى استخدام ثلاثة أضعافها، على ما في ذلك من المخاطرة المؤكَّدة بالهلاك. وكانت هذه الشكوك التي انتابَتْني في أحيانٍ مُتباعِدة قد ألقَتْ بظِلِّها على إحساسي بالرضا. وعلى أيِّ حال ففي ضوء حادثة ذلك الصباح أدركتُ أنه إذا كانت الصعوبة في البداية تتمثَّل في التخلُّص من جَسَد جيكل؛ فقَد انتقلتْ مؤخَّرًا تدريجيًّا، ولكن دون شك، إلى التخلُّص من جَسَد إدوارد هايد. وهكذا بدا أنَّ كلَّ شيءٍ يُشير إلى هذا؛ ألا وهو أنني كنتُ أفقِدُ سيطرتي ببُطء على ذاتي الأصلية والفُضلى، وأندمج ببطء في ذاتي الثانية الأسوأ.

ورأيتُ آنئذٍ أنْ عليَّ اختيار واحدةٍ من هاتَين. وكانت هاتان الطبيعتان عندي تشتركان في الذاكرة، لكنهما كانَتَا تتفاوتان تفاوُتًا بالغًا في المشاركة في جميع المَلَكات الأخرى. كان جيكل (الذي يتركَّب من هاتَين معًا) يرسم مسار مسرَّات هايد ومغامراته ويشارك فيها، أحيانًا بمخاوفَ شديدةِ الحساسية، وأحيانًا باستمتاعٍ ونَهمٍ شديدَين. ولكن هايد لم يكُنْ يَأبَه لجيكل، أو قُل إنه لم يكُن يذكُره إلا كما يذكُر قاطعُ الطُّرق الجبليُّ كَهفَه الذي يتوارى فيه عن مُلاحِقيه. كان جيكل يتمتع باهتمامٍ يزيد عن اهتمام الوالد، وهايد يُبدي ما يزيد عن لامبالاةِ الابن. كان رَسْم مستقبلي في صورة جيكل يعني موتَ الشهوات التي طالما رنوتُ إليها سرًّا ثم بدأتُ في الآونة الأخيرة في إشباعها وإرضائها، ورَسْم مستقبلي في صورة هايد يعني موتَ ألفِ اهتمامٍ وطُموح، ويعني أن أُصبح في «خبطةٍ واحدة» وإلى الأبد محتقَرًا وبلا أصدقاء. قد تبدو هذه الموازنة ظالمة، ولكن يجب إضافة اعتبارٍ آخر إلى هذا الميزان، ألا وهو أنه إذا كان جيكل سوف يكتوي ويتألَّم في نار الحرمان فلنْ يُكابد هايد مجرد الوعي بكلِّ ما فقَدَه. وعلى الرغم من غرابة ظروفي المذكورة، فإن مادة هذه المناظرة قديمةٌ وشائعة منذ أن وُجد الإنسان. فأيُّ خاطئ يستسلم للغَواية ويرتعد منها يواجه هذه المُغريات والمخاوِف نفسها تقريبًا، وقد حدَثَ في حالتي مثلما يحدُث للغالبية العظمى من بَني البَشَر، أنني اخترت الجانب الأفضل ثم اتضح أنني أفتقر إلى القوة اللازمة للحفاظ عليه.

نعم، لقد فضَّلتُ الطبيب الكهل المتذمِّر الذي يحيط به الأصدقاء ويمنِّي النفس بالأماني الكريمة، ومن ثَم ودَّعتُ الحرية بعزمٍ وتصميمٍ راسخ، وودَّعت معها الشباب النسبي، والخُطى الوثَّابة، والنبض الزاخر، والملاذَّ السرِّية التي كنتُ أستمتع بها متنكِّرًا في شكل هايد. وربما أقدمتُ على هذا الاختيار ببعض التحفُّظ الذي لم أكُن واعيًا به؛ إذ إنني لم أتخلَّ عن المنزل في حيِّ سوهو، ولا دمَّرت ملابس إدوارد هايد التي كانت لا تزال جاهزة في غرفة مكتبي. ومع ذلك فقَدْ وفَّيتُ بما عقدتُ العزم عليه لمدَّة شهرين، وكنتُ على مدى هذَين الشهرَين أحيا حياةً تتَّسم بدرجةٍ من القسوة لم أستطع تحقيقها من قبل، ووجدتُ في رضا ضميري متعةً عوَّضتني عن هذا التشدُّد. ولكن الزمن بدَأَ في نهاية المطاف في طَمْس نضرة انزعاجي، كما فَقَدتْ «مدائح» ضميري تأثيرَها بعد أن اعتدتُها، وبدَأَت الأشواق والسكرات تعذِّبني، كأنما كان هايد يكافح للظَّفر بالحرية. وأخيرًا، وفي لحظة ضعفٍ أخلاقي مزجتُ الدواء الذي يُحدث التحويل وشربتُه.

لا أفترض أنَّ السِّكِّير الذي يناقش نفسه منطقيًّا بشأن هذه الرذيلة، يتأثر ولو مرةً واحدة من بين خَمْسُمائة مرة بالأخطار التي تَزخَر بها بَلادَته الحسيَّة الحيوانية، وكذلك كان حالي، فَعَلى طول الفترة التي قضيتُها في تأمُّل موقفي؛ لم أحسُب مرةً واحدة حساب البَلادة الحسِّية والأخلاقية الكاملة، وحساب استعدادي لارتكاب الشرِّ دون إحساس، وكانت هاتان هما الخصيصتَين الرئيسيتين لإدوارد هايد. ومع ذلك فقَدْ جاءني العقاب منهما تحديدًا. كان شيطاني قد طال حبْسُه فانطلق خارجًا يزأر. وأحسستُ حتى في أثناء تجرُّعي الدواء بنزعةٍ للشرِّ يزيد انحلالُها وتزيد ضَراوتُها عمَّا سَبَق. ولا بدَّ أن هذه النزعة كانت — في تصوُّري — العامل الذي أثار عاصفة الضِّيق التي انتابتْني وأنا أستمع إلى الكلمات المهذَّبة من فم التعِس الذي اعتديتُ عليه. وها أنا ذا أقرِّر، على الأقل أمام الله، أنه ما من إنسان يتمتَّع باتزانٍ خُلقي كان يمكن أن يرتكب تلك الجريمة بدافعٍ تافه إلى هذا الحد، كما أقرِّر أنني كنتُ أوجِّه ضرباتي إليه وقدْ غاب عقلي مثلما يغيب عقلُ طفلٍ مريض يحطِّم لعبته. لكنني كنتُ قد اخترتُ أن أجرِّد ذاتي من جميع تلك العوامل التي تحقِّق الاتزان، وهي التي تُمكِّن أسوأ فردٍ أن يحتفظ باستقامته إلى حدٍّ ما وسط المُغوِيات. وعلى أيِّ حالٍ فإنَّ الغَواية، مهما تكُن طفيفة، تعني السقوط.

واستيقظَتْ في نفسي فورًا رُوح الجحيم واضطرم أُوارها، إذ أَسْكرني السرور فجعلتُ أهشِّم الجسد الذي لا يُبدي مقاومة وأتذوق المتعة في كل ضربة، ولم أتوقَّف إلا عندما بدأتُ

أشعُر بالإرهاق؛ إذ أحسستُ فجأةً وأنا في النوبة القصوى من الهَذَيان بأنَّ سهمًا باردًا من الرعب يخترق قلبي. وأحسستُ بأنَّ ضبابًا قد انقشع فكَشَف لي ضياع حياتي، ففررتُ من مسرح هذه الفظائع، وأنا أزهو وأرتجف في الوقت نفسه، بعد أن ارتوتْ شهوتي للشرِّ واشتدَّت معًا، وتعلَّق عشقي للحياة بأعلى مكان. أهرعت إلى المنزل في حيٍّ سوهو، «وحتى أضاعف اليقين في الواقع» أحرقتُ أوراقي، ثم انطلقتُ في الشوارع التي تُضيئها المصابيح. وبالنشوة النفسية نفسها المُنقسِمة على ذاتها، جعلتُ أتلذَّذ بتذكُّر جرائمي وأخطط لجرائم أخرى في المستقبل برأسٍ خفَّ على كتفيَّ! لكنني كنت مع ذلك أُواصل فراري المسرِع وأُرهف السمع حتى أتبيَّن إن كان ورائي مَن يجدُّ في طلبِ الثأر! وردَّد هايد أغنيةً معينة في أثناء تركيب الدواء، وعندما انتهى منه شرِبَه رافعًا الكأس في نَخْب الرجل الميت. ولم تكُن آلام التحوُّل قد انتهتْ من «تمزيق» جسده حين ركَعَ هنري جيكل على ركبتَيه ودموع الامتنان والندم تنساب على وجهه، ورَفَع يدَيه المتشابكتَين ضارعًا إلى الله. وتمزَّق نقاب الانغماس في اللذائذ من ناصية رأسه إلى أخْمَص قَدَمه، وكَشَف لي عن الصورة الكلية لحياتي، فجعلتُ أرصُدُها بَدءًا من أيام الطفولة، عندما كنت أسير ممسِكًا بيَدِ والدي، ومرورًا بمشقَّة إنكار الذَّات في حياتي المهنية، حتى أَصِل المرة تِلوَ المرة إلى بَشَاعَات ذلك المساء الرهيبة، وقد خامرني الشعور نفسه بأنَّ ذلك كله غيرُ حقيقي! كنتُ أحيانًا ما أشعُر بحاجتي إلى الصُّراخ بصوتٍ عالٍ! وحاولتُ بالبكاء والصلوات أن أَطْمس الصور الفظيعة والأصوات الرهيبة التي تتزاحم في ذاكرتي لتُناصِبني العَداء! ولكن الوجه القبيح كان يصرُّ على التحديق داخل رُوحي فيما بين تضرعاتي. وعندما بدأتْ حدَّة هذا الندم تخفُّ وتتلاشى، تلاها إحساسٌ بالسرور. إذ رأيتُ أن مشكلة سلوكي قد حُلَّت، ما دمتُ قررتُ أن أستبعد هايد تمامًا، وأقتصر في حياتي — شئتُ أم أبيتُ — على الجانب الأفضل في كِياني، وما أشدَّ ما كانت فرحتي حين خطَرَ لي هذا الخاطر! وما أشدَّ التواضعَ الذي قَبِلتُه وأنا أعتنق من جديدٍ كل القيود التي تفرضها الحياة الطبيعية! وما أشدَّ ما كان صِدْق إحساسي بنَبَذِ هايد وأنا أُغلق الباب الذي كثيرًا ما جئتُ وذهبتُ منه، وأحطِّم مفتاحه بعَقِب حذائي!

وذاع في اليوم التالي نبأٌ يقول إنَّ شخصًا شاهَدَ وقوع الجريمة، وإنَّ الدنيا كلها علِمتْ بجَريرةِ هايد، وإنَّ القتيل كان يَشغَل مكانةً رفيعة في المجتمع. لم تكُنْ تلك مجرد جريمة، بل كانت حماقةً فاجعة. وأظنُّ أنني سُرِرتُ حين عَرَفتُ ذلك، وكان مبعث سروري أنَّ

ضُروب الرعب التي تُثيرها المِشنقة كانت كفيلةً بتدعيم دوافعي الفُضلى وحمايتها، وكان جيكل الآن يمثِّل مدينةً آمنة ألوذ بها؛ إذ ما إن يُطلُّ هايد برأسه لحظةً حتى ترتفع أيدي الناس جميعًا للقبض عليه وقَتْله.

وعقدتُ العزم على التكفير عن آثام الماضي في مستقبل سلوكي، وأستطيع أن أقول صادقًا إنَّ ذلك جاء ببعض الخير. وأنت نفْسُك تعلم كَم اجتهدتُ في الشهور الأخيرة للعام الماضي كي أُخفِّف الآلام، وتعلم أنني فعلتُ الكثير من أجل الآخرين، وأنَّ الأيام كانت تمرُّ في هدوء بل وأكاد أقول في سعادة. بل لا أستطيع أن أقول إنني شعرتُ بالإرهاق والملل من هذه الحياة العامرة بالخير والبراءة، بل أعتقد أنَّ استمتاعي بها كان يزداد اكتمالًا في كل يوم، ومع ذلك فلم تكُن لعنةُ ازدواجيةَ الغرض عندي قد فارقتْني، فما إنْ غاض البريق الأول لجمال تَوبَتي حتى بدأ جانبي الأسفل يُزَمجِر في طلَبِ الانعتاق بعد أنْ ذاق حلاوة الانطلاق مدةً طويلة وإنْ ظلَّ مكبَّلًا في الأغلال في الآونة الأخيرة. ولكن ذلك لا يعني أبدًا أنني كنتُ أَحلُم ببعث هايد في هذه الدنيا من جديد؛ إذ كان مجرد التفكير في ذلك يزعجني ويكاد يُثير خَبَلي. لا! فالواقع أنني أُغريتُ بالعبث بضميري، مقتصِرًا على ذاتي وحَسْب، أي أنني سقطتُ آخرَ الأمر أمام هجمات الغَواية باعتباري رجلًا عاديًّا يرتكب الخطيئة سرًّا.

لكلِّ شيء نهاية، ومهما تكُن سعةُ الإناء فهو يمتلئ آخر الأمر، وكان في هذا الاستسلام لِجَانب الشرِّ في ذاتي، على قِصَر أمده، إخلالٌ باتِّزان رُوحي في نهاية المطاف. لكنني لم أُفزع، فلقَدْ بدا السقوط طبيعيًّا، كأنه كان عودةً إلى ما سَلَف من أيامي قبل الاهتداء إلى اكتشافي. كان ذلك في صباح يومٍ من أيام يناير اعتدل فيه الجوُّ وصفا الهواء وإن كانت الأرض مبتلَّة نتيجةَ انصهار الصقيع، ولكن السماء من فوقي كانتْ خِلوًا من السحاب، وكان مُتنزَّه ريجنت[٥] حافلًا بشَقْشَقات طيور الشتاء ويشيع في أرجائه شذا الربيع العاطر، وكنتُ أجلس في الشمس فوق أريكةٍ خشبية، والحيوان في داخلي يَلعق

[٥] «منتزه ريجنت»: كان أولًا غابةً ثم أصبح أرضًا زراعية، وأخيرًا أصبح متنزَّهًا تُحيطه منازلُ باذخةٌ صمَّمها جون ناش في عهد الوصاية على العرش في بريطانيا [١٨١١–١٨٢٠م] وهو لذلك يُنسب إلى الوصيِّ على العرش (Regent). وهو يقع شمال شارع مارلبون، وإلى الغرب من يوستون، أي أنه ليس بعيدًا عن منزل لانيون. وقد أُقيمت حدائق الحيوان الخاصة بمدينة لندن داخل هذا المتنزَّه منذ عام ١٨٢٨م.

عظام الذكريات. كان جانبي الروحي قد أصابته سِنةٌ من النوم، وهو يمنِّي النفس بتوبةٍ لاحقة، لكنه لم يتَّخذ أيَّ خُطوة للشروع فيها. وقلتُ في نفسي إنني على أيِّ حالٍ مثل جيراني، ثم ابتسمتُ وجعلتُ أقارن نفسي بغيري من الناس، مُوازِنًا بين ما أفعله مِصدَاقًا للنوايا الحسنة، وما يتقاعسون عن فعله كسَلًا يعتبر قسوة في الواقع. وفي تلك اللحظة نفسها — حين أصابتني هذه الفكرة بالخُيلاء — أحسستُ بدُوار مفاجئ، وانتابني غثيانٌ فظيع، وحلَّتْ بي قُشَعريرة فتَّاكة. وعندما ذهبت هذه العوارض ألفيتُني مَغشيًّا عليَّ، وعندما ذهبت الغَشْية بدَورها بدأتُ أشعُر باختلافٍ في طابع أفكاري؛ إذ شعرت بمزيدٍ من الجُرأة، واستهانةٍ بالأخطار، وبانحلالٍ في روابط التزاماتي. وعندما نظرتُ إلى جسدي وجدتُ أنَّ ملابسي تتهدَّل فضفاضة بلا نظام على أطرافي التي انكمشت، وإذا باليَدِ التي وضعتُها على ركبتي يدٌ معروقةٌ غزيرةُ الشَّعر. لقد أصبحتُ إدوارد هايد مرةً أخرى. كنتُ قبل لحظةٍ واحدةٍ آمِنًا، أتمتَّع باحترام الجميع، ذا ثراء، محبوبًا، والخادم يبسط لي المفرش على المائدة في غرفة الطعام؛ وأصبحتُ الآن الطريدة التي يطلبها الناس جميعًا، ما دمتُ مُلَاحَقًا، مشردًا وقاتلًا معروفًا، وأسيرًا للمشنقة.

كان عقلي مُبلبَلًا لكنه لم يخذلْني خذلانًا تامًّا، ولقد لاحظتُ أكثر من مرة أن ملَكاتي الذهنية تبدو في شخصيتي الثانية حادَّة إلى أقصى درجة وأنَّ رُوحي المعنوية تغدو أشدَّ مرونةً على ما بي من توتُّر. وهكذا كانت الحال هنا، فإذا كان من المحتمَل أن يستسلم جيكل؛ فإن هايد هبَّ ناهضًا لمواجهة هذه اللحظة المهمَّة. كانت عقاقيري في صوانٍ معيَّن في غرفة مكتبي، فكيف يمكنني الحصول عليها؟ كانت هذه هي المشكلة التي تصدَّيتُ للتفكير في حلِّها (ضاغطًا بيديَّ على فَودَيَّ). أمَّا باب المختبر فقَدْ أغلقتُه، وإذا حاولتُ الدخول من باب منزلي فسوف يُرسلني خَدَمي أنفسهم إلى المشنقة. وانتهيتُ إلى ضرورة الاستعانة بشخصٍ آخر، وخَطَر لي أن يكون لانيون. ولكن كيف أتَّصِل به؟ وكيف أُقنعه؟ ولْنفترض أنني نجوتُ من القبض عليَّ في الشوارع، فكيف أصِلُ إليه وأقابله؟ وكيف أستطيع أنا، باعتباري زائرًا مجهولًا وكريهًا أنْ أُقنع الطبيب الشهير بأن يسرق شيئًا من غرفة مكتب زميله الدكتور جيكل؟ ثم تذكَّرتُ أنني ما زلتُ أحتفظ بجانبٍ من جوانب شخصيتي الأصلية، ألَا وهو القدرة على الكتابة بخطِّ يدي نفسه. وما إن لمحتُ هذه الشرارة المتألقة حتى أنارت لي الطريق الذي ينبغي أن أسلكه من بدايته إلى نهايته.

وإذ ذاك هندمتُ ملابسي كيما تناسبني قَدْر الطاقة واستوقفتُ عربةً للإيجار وذهبتُ إلى فندقٍ في شارع بورتلاند،[٦] تصادف أن كنتُ أذكُر اسمه، ولم يستطع سائق العربة أن يُخفي ابتسامته الساخرة من مظهري (الذي كان مُضحِكًا فعلًا، على الرغم من المصير المأساوي الذي تغطِّيه تلك الملابس) فصَرَرتُ على أسناني في وجهه مُبديًا غضْبةً شيطانية. وسرعان ما ذَوت الابتسامة في وجهه، وهو ما أفاده بل أفادني أكثر ممَّا أفاده إذ لو استمرت البسمة لحظةً أخرى لكنت قد جررتُه قَطعًا من مقعده! وحين وصلتُ إلى الفندق نظرتُ حولي بوجهٍ شديد الاكفِهْرَار إلى الحدِّ الذي أرعَبَ الخَدَم، فلمْ يَجرءُوا على تبادُل أيِّ نظرات في حضوري، لكنهم استمعوا إلى أوامري طائعين واصطحبوني إلى غرفةٍ خاصة، وأحضروا لي مُعدَّات الكتابة. كان هايد الذي يواجه الخطر على حياته مخلوقًا جديدًا في نظري، إذ كان مضطربًا في غضبه الشديد، مشدود الأعصاب إلى حدِّ ارتكاب القتل، توَّاقًا إلى إحداث الألم. ولكن ذلك المخلوق كان فطِنًا حصيفًا، إذ سيطَرَ على غضبه بجهدٍ إراديٍّ عظيم، وكَتَب خطابَيه المهمَّين؛ الأول إلى لانيون، والثاني إلى بوول. وأراد أن يكون في يده دليلٌ ملموس على إرسالهما بالبريد فأَمَرَ بإرسالهما بالبريد المسجَّل.

ومنذ تلك اللحظة لم يبرح مكانه بجوار المدفأة طول النهار، وهو يقضم أظفاره في توتُّر، وهناك تناول عشاءه، وحده بصحبة مخاوفه، والنادل يرتعد أمام ناظرَيه، وعندما هبَطَ الليلُ بحُلْكته انطلق وقبَعَ في رُكن عربةٍ مغلَقة استأجرها وجعلتْ تَطُوف به شوارع المدينة رائحةً غادية. وأنا أشير إليه بضمير الغائب ولا أستطيع الإشارة بضمير المتكلم، إذ لم يكن في ابن الجحيم المذكور ما يربطه بسائر البشر، ما دام لا يحيا في داخله سوى الخوف والكراهية. وعندما تصوَّر آخر الأمر أن السائق قد يستريب به؛ صرَفَ العربة وانطلق سيرًا على الأقدام في الشارع، بملابسه المتهدِّلة حول جسمه؛ فأصبح منظره يُغري

[٦] «فندق في شارع بورتلاند»: كان هذا في الوقت شارعًا في الناحية الجنوبية من شارع أكسفورد، وعلى مشارف حيِّ سوهو. وكان يمكن الوصول إليه بعربةٍ مُستأجَرة بسهولةٍ من متنزَّه ريجنت، ولم يكن يبتعد عن منزل لانيون في ميدان كافنديش إلا بعِدَّة شوارع قصيرة. ولكن لماذا يخاطر هايد بالمرور بالقرب من سوهو إلى هذا الحد، أيْ مرتع شطحاته القديم؟ كان شارع «جريت بورتلاند» — وهو أقرب إلى متنزَّه ريجنت — يسمَّى ذات يوم شارع بورتلاند (وإن كان ذلك قبل عام ١٨٨٥م) كما يوجد شارع يسمَّى «بورتلاند بليس» يكاد يلاصق الشمال الشرقي لميدان كافنديش، والواضح أنَّ هذا يمثِّل اختيارًا أسلمَ وأشدَّ احتمالًا من فندق في سوهو للطريد هايد. ومن المرجَّح أن ستيفنسون قد خلط بين هذه الشوارع في أثناء كتابته القصة في فِراشه بمدينة بورنموث.

بالتأمُّل، مختلطًا بغيره من المارَّة في تلك الساعة من الليل، وعندها ارتفع ضجيج الخوف والكراهية في نفسه مثل عاصفةٍ مُزمجِرة. وأسرع في خَطوه تطارده مخاوفه، مُتَمتِمًا ببعض الألفاظ لنفسه، وكان يتوارى في الحارات شِبْه الخالية من المارَّة، ويعدُّ الدقائق التي ما زالت تفصل بينه وبين منتصف الليل. وعندما استوقفتْه امرأةٌ تبيع فيما أعتقد عُلَب الثِّقاب لطَمَها على وجهها ففرَّت هاربة.

وعندما عُدتُ إلى ذاتي في منزل لانيون أحسستُ بأنَّ هلع صديقي القديم ربما يكون قد حزَّ في نفسي بعض الشيء؛ لستُ واثقًا، فلَمْ يكن ذاك غير قطرةٍ في محيط الكراهية التي أسترجع بها تلك الساعات. وحدَثَ لي تغييرٌ آخر، إذ لم أعُدْ أرتعد خوفًا من المشنقة؛ بل خوفًا من أن أغدو هايد. وكنتُ أُصغي إلى لانيون وهو يُدينني كأنما كنتُ أحلُم، وفي شِبْه حلمٍ أيضًا عُدتُ إلى منزلي وأَوَيتُ إلى الفراش. ونمتُ بعد ما شَهِدتُه ذلك اليوم من إنهاكٍ عصبيٍّ نومًا عميقًا مُطبقًا لم تُفلح الكوابيس التي كانت تعصرني نفسها في قطعه. وصحوتُ في الصباح مضطربًا واهنًا لكن منتعِشًا. كنتُ لا أزال أُبغِض وأخاف فكرة الوحش الذي ينام في داخلي، ولم أكنْ قد نسيتُ بطبيعة الحال الأخطار الرهيبة التي واجهتُها في اليوم السابق، لكنني قد عُدتُ إلى منزلي، وهو منزلي الحقيقي، وأصبحت قريبًا من عقاقيري، وكان امتناني لنجاحي في الفرار يسطع بشدَّة داخل نفسي حتى كاد يُنافِس بريق الأمل.

كنتُ أَسيرُ على مَهلٍ عبْرَ الفِناء بعد الإفطار، مستمتعًا بتجرُّع بَرَد الصباح عندما استولتْ عليَّ مرةً أخرى تلك الأحاسيس التي يصعُب وصْفُها والتي تُنذر بالتحوُّل، وما كِدتُ ألجأ إلى ملاذي في غرفة المكتب حتى دهمتْني مشاعر هايد الجامحة التي جمَّدتني في مكاني. واضطُررتُ هذه المرة إلى تناول جرعة مضاعَفة حتى أستعيد ذاتي. ولكنني بعد ستِّ ساعاتٍ وحَسْب، في أثناء جلوسي بجوار المدفأة أنظُر إلى النار في حُزن، فوجئتُ بعودة الآلام، واضطُررت من جديد إلى تناول الدواء. وأقول بإيجاز إنَّ قدرتي على اكتساب صورة جيكل كانت تتطلَّب جهدًا شاقًّا مثل تمارين الجمباز، وبالتأثير المباشر للعقار وحَسْب. منذ ذلك اليوم، كنت أُفاجأ مهما يكُن الوقت ليلًا أو نهارًا بالرعشة المُنذِرة، والأخطر من ذلك أنني إذا نِمت، أو حتى إذا غفوتُ وأنا جالسٌ في مقعدي لحظةً واحدة، كنتُ دائمًا أستيقظ في صورة هايد. وإزاء إحساسي بذلك المصير الذي يتهدَّدني بين الفَيْنة والفَيْنة، والأرق الذي أصبحت أفرضه على نفسي، بل إلى الحدِّ الذي لم أكن أتصوَّر أن الإنسان يقْدِر عليه؛ غدوتُ — وإن لم يتغيَّر شخصي — مخلوقًا تَنهَشه الحُمَّى وتُفرغه ممَّا في نفسه،

وأصابني الوهن في الجسم والعقل، ولم يعُد يَشغَلني غير فكرةٍ واحدة، ألَا وهي الرعب المتمثِّل في ذاتي الأخرى. لكنني عندما أنام، أو عندما يتلاشى تأثير الدواء. كنتُ أشعُر أنَّ خيالي يزخَر بصُوَر الرعب، وأنَّ روحي تغلي بضروبِ كراهيةٍ لا سببَ لها، وأنَّ جسدي لا يبدو متينًا إلى الحدِّ الذي يُمكِّنه من احتواء طاقات الحياة المتأجِّجة، ويكاد يتكرَّر ذلك من دون فترةٍ انتقالية (إذ إنَّ الإحساس بآلام التحوُّل كان يقلُّ يومًا بعد يوم). ويبدو أنَّ قُوَى هايد قد زادت مع اعتلال جيكل. ولا شكَّ أنَّ الكراهية التي أصبحتْ تَفْصِلهما كانتْ متساويةً في الجانبين. كانت هذه الكراهية عند جيكل من وحي إحساسه الغريزي الحيوي، بعد أن اتَّضح له التشوُّه الكامل لذلك المخلوق الذي كان يشاركه بعضًا من ظواهر الوعي، ويشاركه أيضًا ميراث الموت. وأما إذا تجاوزنا هذه الروابط التي تجمع بينهما، والتي تمثِّل في ذاتها أَمَرَّ جانبٍ من جوانبِ كَرْبه؛ فسوف نجِدُ أنَّ جيكل لم يكن يَعتبِر هايد كائنًا جُهنميًّا فقط، بل أيضًا — وعلى الرغم من طاقة الحياة الكبرى فيه — كائنًا غير عضوي، وكان ذلك أفظعَ ما في الأمر؛ أي أنَّ طين الحفرة كان يبدو قادرًا على الصياح وإصدار الأصوات، والتراب الذي لا شكل له كان يستطيع الإشارة بيديه وارتكاب الخطايا، وما كان ميتًا لا صورة له استطاع القيام بوظائف الحياة غَصبًا! أضف إلى هذا أنَّ ذلك الكائن البشِع المتمرِّد يرتبط به ارتباطًا وثيقًا يزيد على ارتباطه بزوجته، وارتباط عينه به، وأنه كان محبوسًا في لحم جسده، وأنَّ جيكل كان يَسمعه وهو يُدَمدِم ويكافِح حتى يولد، وأنَّ هذا الكائن كان ينجح في كلِّ ساعة من ساعات الضعف، وفي الثقة التي يأتي بها النوم، في التغلُّب عليه وخَلْعه من عرش الحياة. وأما كراهية هايد لجيكل فكانت من نوعٍ آخر؛ كان رعبه من المشنقة يدفعه من حين لآخر إلى قَتْل نفسه مؤقتًا، والعودة إلى موقعه الثانوي حيث يمثِّل جانبًا وحَسْب من إنسانٍ بدلًا من أن يكون شخصًا كاملًا، لكنه كان يكره اضطراره لذلك ويَمقتُ بئر الاكتئاب التي سقط جيكل فيها الآن، كما كان يتذمَّر من النفور الذي يتَّسم به موقف الآخرين منه. وهذا هو ما يفسر ألاعيبه التي تُشبِه ألاعيب القِرَدة، ومُعابَثَته إيَّاي بأن يكتب بخطِّ يدي عباراتِ تجديفٍ في الدين في صفحات كتابي، وأنْ يحرق الخطابات ويحطِّم صورة والدي، والواقع أنه لولا خوفه من الموت لقَتَل نفسه من زمنٍ بعيدٍ حتى يقتلني معه! ولكنَّ حبَّه للحياة رائع، وأقول المزيد: فأنا الذي أتقزَّز ويجمُد الدم في عروقي لمجرد التفكير فيه، أجِدُني — حين أسترجع الْتصاقه الشديد بالدنيا وحبَّه المشبوب لها، وحين أُدرك كَم يخشى قدرتي على قتله إذا انتحرتُ — أجِدُني قادرًا على الإشفاق عليه!

من العبث الاسترسال في هذا الوصف، كما لا يسمح لي الوقت على الإطلاق، ويكفي أن أقول إنه لم يَشهَد غيري ما شهِدتُه من صنوف العذاب، ولكن اعتيادي هذا العذاب نفسه لم يُؤدِّ إلى تخفيفه بل إلى بلادةٍ معينة في النَّفْس، لك أنْ تُسمِّيها الاستسلام للقنوط، كما كان من الممكن أنْ يستمرَّ عقابي سنواتٍ طويلةً لولا الكارثة التي وقعتْ أخيرًا، والتي فصلتْ بيني آخرَ الأمر وبين وجهي وطبيعتي، إذ بدأ مخزوني من الملح الذي لم أجدِّده قَط منذ التجربة الأولى يتضاءل. فأرسلتُ أَطْلُب كميةً جديدة، وكنتُ أختبر ما يأتيني فأَمزِجه بالمحلول فيَغلي، ويعقبه تغير اللون الأول لا الثاني؛ وأشربه من دون أن تكون له فاعلية. وسوف تعرف من بوول كيف أنني لم أترك صيدلية في لندن إلا أرسلتُه إليها، دون أن يأتي ذلك بِطَائِل. وقد اقتنعتُ الآن أنَّ الملح القديم لم يكُن نقيًّا، وأنَّ الشوائب المجهولة كانت مصدرَ فاعلية العقار.

مرَّ على ذلك نحو أسبوع، وأنا أُنهي هذا الخطاب الآن تحت تأثير المساحيق القديمة. وهكذا فإنَّ هذه هي المرة الأخيرة التي يستطيع فيها هنري جيكل أن يُزاول تفكيره الخاص وأفكاره الخاصة أو يرى وجهه الحقيقي في المرآة (بعد تغيُّره المُؤْسي!) إلا إذا وقَعتْ معجزة. كما ينبغي ألَّا أُؤخِّر اختتام ما أكتُبه تأخيرًا أكثر ممَّا ينبغي، فإذا كانت قصتي قد نجَتْ حتى الآن من التلف؛ فمردُّ ذلك إلى مزيجٍ من الحصافة الفائقة، وحُسن الطالع الكبير. وإذا أدركتْني سكرات التحوُّل في أثناء الكتابة، فسوف يمزِّق هايد هذه القصة شرَّ ممزَّق، لكنه إن مرَّ بعض الوقت على تَنْحيتي إيَّاها فإن أنانيته الرائعة وانحصاره في اللحظة الحاضرة قد يُنقذانِها مرةً أخرى من حِقْده الذي يُشبه حقْدَ القِرَدة. والواقع أنَّ المصير المحتوم الذي أَخَذَ يُطبق علينا معًا قد غيَّره بالفعل وسحَقَه. وبعد نصف ساعة، عندما أُعيد اكتساب تلك الشخصية البغيضة فلا أبرحها إلى الأبد، أعرف كيف سأجلس في مقعدي وأنا أرتعد وأبكي، أو أستمر — شاحذًا أقصى طاقة لديَّ على الإصغاء في فورة الخوف البالغة — في السير رائحًا غاديًا داخل غرفتي (فهي ملجئي الأخير على وجه الأرض) شارِعًا أذني لكلِّ صوتٍ يحمل تهديدًا لي. هل سيموت هايد شنقًا، أم هل تواتيه الشجاعة لتخليص نفسه في اللحظة الأخيرة؟ الله أعلم! لم أعُدْ أهتمُّ؛ فهذه هي ساعة موتي الحقيقية، وما يعقبها من شئون سواي. وإذن فإنني أقوم هنا، وأنا أرفع القلم عن الصحيفة وأختم الظرف الذي سوف أضع فيه اعترافي، بوضع نهايةٍ لحياة هنري جيكل التَّعِس.

الملاحق

لمحات من حياة روبرت لويس ستيفنسون

١٨٥٠م: وُلِد روبرت لويس بلفور ستيفنسون يوم ١٣ نوفمبر ١٨٥٠م في إدنبره، وقد غيَّر فيما بعد اسم لويس الإنجليزي (Lewis) إلى صورة الاسم الفرنسية (Louis). وكان توماس والده مهندسًا ورِثَ المهنة عن أسلافه الذين اشتُهروا في اسكتلندا ببناء المنارات البحرية، كما كانت والدته مارجريت إيزابيلا بلفور تنتمي إلى أسرةٍ تعمل بالمحاماة.

١٨٥٧م: ينتقل منزل الأسرة إلى ١٧ شارع هيريوت في حي نيوتاون في إدنبره.

١٨٦٧م: يلتحق بجامعة إدنبره لدراسة الهندسة وفقًا لتقاليد الأسرة، لكنه سرعان ما يتحوَّل إلى دراسة القانون.

١٨٧٥م: يحصل على ليسانس الحقوق والإذن بممارسة المحاماة، لكنه لا يمارسها أبدًا.

١٨٧٦م: يبدأ النشر في المجلات، ومعظم أعماله الأولى تنتمي إلى أدب الرحلات، ويستقي مادتها من خبرات حياته في بُلدانٍ شتَّى. يقابل فاني أوزبورن، وهي أمريكية في السادسة والثلاثين وكانت منفصلةً عن زوجها.

١٨٧٧م: ينشر عملًا بعنوان «رحلة نهرية داخل البلد»، ويصِفُ فيها رحلته بقاربٍ نهري في شمال فرنسا.

١٨٧٨م: ينشر «رحلات مع حمار في جبال سيفين»، ويحكي فيها مغامراته في جنوب فرنسا.

١٨٧٩م: يلتحق بالسيدة فاني في كاليفورنيا، ويصِفُ ما حدَثَ له فيما بعد بعنوان «المُهاجِر الهادِئ» (١٨٩٤م).

١٨٨٠م: يتزوج فاني.

١٨٨١م: ينشر مقالات بعنوان «فيرجينيا بعيني طفل».

١٨٨٢م: ينشر «ألف ليلة وليلة الجديدة»، وهي مجموعة من القِصص القصيرة.

١٨٨٣م: ينشر «احتلال مَنجم الفضة»، ويصِفُ فيه قضاءه «شهر العسل» في مَنجمٍ للفضة في كاليفورنيا. وينشر أيضًا «جزيرة الكنز»، وهي من أشهر قِصص المغامرات المكتوبة للأطفال، وقد بدأتْ هذه في تثبيت سمعَتَه كاتبًا.

١٨٨٤م: ينتقل إلى منزل في مدينة بورنموث، ولكنه يغيِّر اسم المنزل فيجعله «سكريمور» تكريمًا للمنارات التي أنشأها أَحَد أسلاف ستيفنسون. وينشر قصة اختطاف الأجساد في الكريسماس.

١٨٨٥م: ينشر قصة «الأمير أوتو»، وقصة «مقياس التليسكوب». ينشر «أولالَّا» في الكريسماس.

١٨٨٦م: ينشر قصة «القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد» في يناير، وكان المقرَّر أصلًا أن تُنشر في الكريسماس ١٨٨٥م، ولكن الناشر أَجَّل نشْرَها بسبب ازدحام سوق الكتب. وكانت الطبعات الأُولَى لهذه الرواية تحمل تاريخ ١٨٨٥م الأصلي على الغلاف. وكان هذا العمل هو الذي تسبَّب في ذيوع صيت ستيفنسون، فنَشَر أيضًا قصة «المخطوف».

١٨٨٧م: ينشر «رجال المرح وخرافات أُخرى»، ويُتوفَّ توماس ستيفنسون.

١٨٨٨م: أول رحلة يقوم بها ستيفنسون إلى «بحار الجنوب»؛ أي جنوب المحيط الهادئ. وتقع جرائم القتل التي ارتبطتْ باسم المنطقة، أي هوايتشابل، في شرق لندن في أثناء عرض مسرحية بعنوان «دكتور جيكل ومستر هايد» (المبنية على القصة المشهورة) في أحد مسارح لندن، فيوقف المسرح عرضها بسبب الحساسية الجماهيرية للموضوع.

١٨٨٩م: ينشر «صاحب منزل بالانترى». يكتب «الصندوق غير المقصود» بالاشتراك مع ابن زوجته «لويد أوزبورن». يستقرُّ في جزائر ساموا، في جنوب المحيط الهادئ.

١٨٩٢م: ينشر «شاطئ فولسي».

١٨٩٣م: ينشر «مباهج ليالي الجزيرة»، وقصة «كاتريونا» (التي يتابع فيها أحداث قصة «المخطوف»).

١٨٩٤م: ينشر «المدُّ والجَزر». يُتوفَّى في ساموا في ديسمبر بمرض السُّل.

١٨٩٦م: تُنشر الرواية الناقصة «وير من بلدة هيرميستون».

١٩١٤م: تُتوفَّى فاني ستيفنسون.


هنداوي

